

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية
تصدرها شعبة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الرابع	٢٤ ربيع الثاني ١٣٦١ هـ	المجلد الثالث عشر
--------------	------------------------	-------------------

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فوزي بن علي

الاشتراكات عمدة سنة	الإدارة
داخل القطر ٢٠٠	ميدان الأزهر
لطلبة الجامعة الأزهرية خاصة ... ١٠٠	تليفون : ٨٤٣٣٢
خارج القطر ٣٠٠	الرسائل تكون باسم مدير المجلة

نمن الجزء الواحد ٢٠ مليا داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر - ١٩٤٢)

فهرس

الجزء الرابع - المجلد الثالث عشر

صفحة

تفسير سورة لقمان	 بقلم	حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر	١٤٥
رسالة محمد	 »	حضرة الأستاذ مدير المجلة	١٥٠
فلاسفة الاسلام	 »	الدكتور محمد غلاب	١٥٥
عثمان بن عفان	 »	فضيلة الأستاذ صادق عرجون	١٥٨
فلسفة الأخلاق	 »	محمد يوسف موسى	١٦٢
هل أدى العلماء واجبهم الدينى	 »	أبو الوفا المرائى	١٦٦
ذكرى المولد الشريف	 »	عبد الجواد رمضان	١٧٠
ذكرى المولد النبوى	 »	على محمد حسن	١٧١
المولد النبوى	 »	حسن جاد حسن	١٧٣
وصية لم تدون	 »	لجنة الفتوى	١٧٥
السفر والغطس فى الماء فى رمضان	 »	مركز تحقيقات كليات علوم الشريعة	١٧٧
حول السيرة المحمدية	 »	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبدالله الجهنى	١٧٩
المثل السائر	 »	محمود فرج العقدة	١٨١
مقارنة ومفاضلة	 »	حضرة الأستاذ مصطفى عبد الحميد	١٨٥
الموازنة وأثرها الأدبى	 »	فضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى	١٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفسية سورة الفصاحات

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي
شيخ الجامع الأزهر

— ٥ —

﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة
الأمور. ومن كفر فلا يحزنك كفره، إلينا مرجعهم فننبيهم بما هموا، إن الله
عليهم بذات الصدور. نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾ :

العروة من الجبل : هي الناحية من نواحيه . والوثقى : المتينة . والوجه : الذات .
والتسليم : التفويض .

والمعنى أن من يسلم ذاته إلى الله سبحانه ويفوض إليه أمره ويحسن في عمله : يطيع
أوامر الله ويحذر منهياته ، ويسير في الأسباب التي سنّها الله في الكون ويربط بها مسيبتها ،
مراقباً في ذلك وجه الله ، فهذا شخص تعلق بأقوى طرف من أطراف حبل النجاة ، فلا
ينقطع به الحبل ، ولا يتردى في الهاوية . وهذا مثل ضربه الله سبحانه للمحسن المفوض ، فجعل
حاله كحال الشخص الذي أراد أن ينزل من شاهق الجبل فتمسك بأقوى أطرافه ، فهو بآمن
من السقوط وانقطاع الحبل إلى أن يصل إلى الأرض سليماً . وهذا الذي أسلم وجهه إلى الله
وهو محسن سينال في الآخرة جزاءه على ما قدم من خير ، فإن مرد الأمور جميعها إلى الله
سبحانه ، وهو يجازي على الذرة من الخير كما يجازي على الذرة من الشر : « فن يعمل مثقال ذرة
خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

أما الكافر فلا يحزنك أيها النبي كفره ، ولا يهمنك أمره ، إن مرجعه إلى الله ، وهو

العليم بذات الصدور ، وبما تنطوي عليه كل نفس ، وسيخبره بما قدم من شر ، وسيجازيه عليه ، ويرده مقهورا الى العذاب الغليظ الثقيل . ومتعة الكافر في الدنيا متعة قليلة ، لأن أجل الانسان في هذه الحياة قصير مهما طال ، فهو وإن تمتع في هذه الحياة فسيكون أمره في الحياة الآخرة غير أمره في الحياة الدنيا ، إنه سيقع في العذاب الغليظ ، في أمد طويل لا نهاية له . ولهذه الآية نظائر كثيرة جدا في القرآن :

« فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » ، « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » ، « ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان الله غني حميد » .

والغرض منها جميعها تقرير قاعدة واحدة : هي أن كل شيء يعمل به الانسان ففائدته تعود عليه ، فان عمل خيرا لقي جزاءه من الخير ، وإن عمل شرا لقي جزاءه من الشر ؛ فلا كفر الكافر يضر الله ورسوله ، ولا إيمان المؤمن يعود على الله ورسوله . والتسكاليف جميعها لم يقصد بها إلا مصلحة العباد . وقد سلى الله سبحانه رسوله بقوله : « فلا يحزنك كفره » لينصرف بهم كله الى الدعوة وتبليغ الرسالة وسياسة الخلق ؛ والإمام الأكبر يجب أن يوفر له الصفو ، ويباعد عنه الحزن المقلق المثير للهم والصارف عن الخير ؛ وللبشرية أحكامها التي تراقب وتعالج ؛ ومن الذي يعالج الأنبياء ويراقب خطرات نفوسهم ويثبتهم إلا الله الحكيم الذي بعثهم وأبدى لهم فهو يرعاهم ويحوظهم ؟ « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ، إذاً لأذقنك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يألم بألم أشد الألم لضلال قومه ؛ ويدل لذلك قول الله تعالى : « فلعلمك باخع نفسك على آفاتهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

ومعنى قوله سبحانه : « نمتهم قليلا ثم اضطروهم الى عذاب غليظ » أن الكافر لا يعلم أن كفره ينتهي به الى عذاب النار ، فهو لم يكن مريدا لعذاب النار ومختاراه ، ولكنه أراد الكفر ، ومرده الكافر الى النار ، فهو مسوق اليها رغم أنفه ، وملجأ اليها اضطرابا . وللأعمال البشرية غايات وآثار تنتهي اليها بحسب السنن ونظام الأسباب والمسببات ، كما يقضى الإسراف في الشهوات والراحة المفرطة والتعب المضني الى بعض الأمراض ؛ وأعمال الفساق وأعمال الكفار تقضى الى النار كما يقضى الإسراف في الشهوات الى المرض ؛ فهي من الأسباب التي ربطت بها مسبباتها حسب الناموس الإلهي والنظام العادل الذي سنه العليم الحكيم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ . اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ :

هذا رجوع الى الاستدلال بالخلق والنعم على تفرد الله سبحانه بالعبادة ؛ لكن الاستدلال هنا باقرار الجاحدين أنفسهم ؛ فانه سبحانه يقول لنبيه : إنك إن سألت المشركين الذين يعملون مع الله إلها آخر ويعملون له أندادا وشركاء في العبادة : من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن خلقهن الله ، لا يستطيعون إنكارا ، لوضوح الدلائل عليه ، وقيام الحجة ، وتأيد الفطرة ؛ وهذا الاعتراف يوجب الاعتراف باستحقاق الله وحده للعبادة ، ويوجب نقض مذاهبهم ومعتقداتهم ؛ فاحمد الله سبحانه على أن الحجة لزمته باقرارهم كما لزمته بالأدلة الماثلة ؛ لكن هؤلاء جهلاء أغبياء لا يعرفون طرق الاستدلال ، ولا يعرفون التلازم بين التفرد في الخلق والتفرد في العبادة ، وهذه الجهالة هي التي ورطتهم فيما هم عليه ؛ وهذا هو معنى قوله سبحانه : « بل أكثرهم لا يعلمون » . والاعتراف بالتفرد بخلق السموات والأرض اعتراف بأنه المالك لما فيهما ، المتصرف فيه ؛ فهو مالك جميع المنافع التي تعود على الخلق ، وهو الذي أحسن اليهم بها على سبيل الفضل والمنة منه ؛ إن الله هو الغني عن كل شيء سواه ، وهو الحميد المستحق للحمد في ذاته ، حمده الناس أم لم يحمده . والمنتبج لآي القرآن الكريم في دحض الشرك وإقامة الأدلة على الوحدة ، يرى أنه موضوع أطيل الحديث فيه وأعيد وكرر ، لأنه أهم موضوع تبني عليه الشرائع وتقوم على أسسه قواعد الإصلاح ؛ وللتكرار فعل في النفوس لا ينكر أثره ، وبخاصة إذا كان من نوع أساليب القرآن القوية الجذابة التي تفعل في النفوس فعل السحر .

﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ

كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ :

المعنى : ولو أن أشجار الأرض كلها برت أقلاما ، وجعل البحر كله مدادا لهذه الأقلام ، ثم مُد هذا البحر بسبعة أبحر مثله ، وكُنبت كلمات الله سبحانه بهذه الأقلام وهذا المداد ، لتكسرت الأقلام وفنى المداد قبل أن تنفد كلمات الله ، فانه العزيز القادر الغالب الذي لا يعجزه شيء ، والذي لا نهاية لمقدوراته ، الحكيم الذي لا يخرج شيء عن علمه وحكمته ، ولا نهاية لعلمه كما لا نهاية لمقدوراته .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالكلمات هنا الالفاظ التي يعبر بها عما في علمه وقدرته ، ولهم في أسباب النزول روايات مختلفة لا يعيننا ذكرها ، فان الآية متسقة مع الآيات قبلها ، ولا يتوقف تفسير معناها على بيان أسباب النزول .

وبعض المفسرين على أن المراد بالكلمات هنا عجائب صنع الله وعجائب قدرته ، وأطلق عليها

اسم الكلمات مجازاً، من إطلاق اسم السبب على المسبب، فان قول الله: كن، وهى كلمة، سبب فى إيجاد الأشياء، وفى بروز عجائب الصنع الى الوجود؛ وهذا كما يقول الشجاع لمن يبارزه: أنا موتك، وكما يقال للمريض: هذا شفاؤك وهم يشيرون الى الدواء، والشجاع ليس هو الموت لكنه سببه، والدواء ليس هو الشفاء لكنه سببه. وقد نقل مثل هذا عن بعض السلف؛ فقد روى عن قتادة أنه قال: لنفد البحر قبل أن تنفذ عجائب ربى وحكمته وخلقه. وكلا المعنيين صحيح، والمآل واحد على كلا الرأيين، فان الله سبحانه بعد أن بين أنه خالق السموات والأرض وأنه مالك كل شئ فيهما، أراد أن يبين أن قدرته لا تقف عند هذا الحد من خلق السموات والأرض وما فيها، وأنه قادر على أن يخلق غير ذلك مما لا نهاية له، ومما إذا أريد أن يكتب لفنيت الأفلام والبحار قبل أن يكتب؛ ولا شك أن الذى يكتب هو الكلمات التى تدل عليه، فيصح أن يراد عجائب الصنع، والذى يكتب هو الكلمات، ويصح أن تراد الكلمات من أول الأمر.

وهذا التفسير لوحظ فيه أن الكلمات التى لا تنفذ هى المقدورات التى لا نهاية لها مما هو خارج عن السموات والأرض. والأولى أن يراد بالكلمات التى لا تنفذ، عجائب الصنع فى السموات والأرض، فان ما فيها من دقة الوضع وحسن التأليف والنظم، ومن الأسرار الباهرة فى كل جزء مما حوته السموات والأرض، وفى كل نوع من الحيوان والنبات؛ فى ذلك من الأسرار والجمال ما لو فهم وأريد أن يكتب لما استطاع أحد أن يكتبه، لأنه لا توجد له أفلام ولا يوجد له مداد يفتى به؛ وكأن الله سبحانه يقول: إن عجائب صنعى فى هذه السموات التى تعرفونها وهذه الأرض التى تعرفونها لا تنتهى عند حد، ولا يستطيع كتابتها مع أنها فى شئ محدود متناه. وفى هذا من عظمة الخلق وعجائب الصنع ما يرجح رأى الذى أشرت اليه.

وقد ظهر من هذا أن الآية متسقة مع الآيات قبلها، لأنها كلها فى بيان التفرد بالخلق وعظمة الخالق وعظم الخلق، وبدائع هذا الخلق وعجائب الصنع فيه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا».

وكلمة «يمده» فى قوله «والبحر يمهده من بعده سبعة أبحر» مأخوذة من قولهم: مد الدواء وأمدها، فسكانه جعل البحر دواء وجعل الأبحر السبعة مدادا.

وقوله «سبعة أبحر» لا يراد بها العدد المخصوص بل يراد بها الكثرة. ونظير ذلك قوله عليه السلام: «المؤمن يأكل فى مئى والكافر يأكل فى سبعة أمعاء». ومن الواضح أنه ليس للكافر سبعة أمعاء، بل المراد قلة الأكل وكثرته.

وعلى هذا يمكن أن يقال في أبواب النار . أما الأبواب الثمانية للجنة فقد أريد بالزيادة فيها على النار أن يدل على أن مسالكها أكثر من مسالك النار لراحة أهلها وزيادة العناية بهم . وكذلك يقال في السموات السبع والأرضين السبع ؛ والعرب تذكر السبعة للكثرة ، وتذكر السبعين للكثرة كذلك ، ومنه : « استغفر لهم أولاً تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » . ومن المعلوم أن الله لا يغفر لهم في السبعين ولا في السبعة الآلاف . ونظيره : « في سلسلة ذرعا سبعون ذراعا فأسلكوه » . يراد في سلسلة طويلة هائلة ، ولا يراد التقدير بهذا العدد .

وقوله تعالى : « إن الله عزيز حكيم » ظاهر المناسبة جدا عند حمل الكلمات على عجائب الصنع وعلى المقدورات التي لانهاية لها ؛ وهو ظاهر المناسبة أيضا على إرادة الألفاظ التي يعبر بها عن المقدورات وعجائب الصنع باعتبار مدلول الكلمات .

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنَيسَ وَاحِدَةً ، إِنَّ اللَّهَ مَبْصِيرٌ بِصِيرٍ ﴾ :

هذه نتيجة من نتائج الآيات السابقة ؛ فقد كان الحديث عن عظمة قدرة الله وسعة علم الله ؛ فهذه القدرة الباهرة الغالبة التي لا يعجزها شيء ولا يشغلها شيء عن شيء ، تخلق العالم كله بجميع ما فيه من أنواع كما تخلق نفساً واحدة ، وتبعث الناس كلهم كما تبعث نفساً واحدة ؛ وهذه النتيجة التي جعلت تابعة لمقدماتها مما أنكره المشركون ، فقد كذبوا بالبعث كما عدّدوا الآلهة ، قالوا : « أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ، « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم » .

بعد هذا كله أنذر الله سبحانه عباده بقوله : « إن الله مَبْصِيرٌ بِصِيرٍ » . فهو مَبْصِيرٌ بما يقوله المشركون من شرك وتكذيب وإنكار للبعث ، إلى غير ذلك من أنواع الضلال ؛ وهو بصير بأعمالهم وسيجازيهم عليها « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله » .

وقريب منه : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله المؤمنين ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

رسالة محمد (١)

توسع الكتاب المعاصرون في استعمال كلمة (رسالة) ، فأطلقوها على كل عمل أدبي أو اجتماعي يضطلع به فرد من الأفراد لفائدة المجتمع الذي يعيش فيه ، فيقولون : قد أدى فلان رسالته العلمية على أكل حال ، ونال إعجاب مواطنيه وشكرهم .

وهم ما استحسنوا هذا التوسع إلا لدلالته على أن كل إنسان مدفوع بتأثير ميوله الطبيعية لأن يضطلع بعمل من الأعمال لمصلحة الجماعة التي يعيش بين ظهرانيها . وهو تعبير مجازي منقول عن بعض اللغات الأجنبية ، ومؤسس على المقررات البسيكولوجية .

فاذا حاول مفكر لا يعتقد بإمكان الوحي ، ولا يقول بالنبوة ، أن يقدر قدر الرسالة التي أداها محمد صلى الله عليه وسلم للمجتمع الذي نشأ فيه وللعالم أجمع ، في حدود الاستطاعة البشرية (العادية) ، وجد نفسه حيال حوادث ضخمة لا يعقل أن تتم إلا في خلال آماد طويلة ، وعقب تطورات متوالية ، ومقدمات متتابعة .

ماذا يجد ؟ يجد أنه صلى الله عليه وسلم ، في خلال سنوات معدودة ، أخرج أمته طفرة من حالة قبيلية كانت عليها ، إلى وحدة اجتماعية قوية التماسك ، سقطت فيها كل مميزات الحالة الأولى ، من التمايز بالأنساب ، والتباهى باللقاب ، والتناحر لآفته الأسباب ، فضلا عن تجردها من كل غابة اجتماعية ، ونزعة عمرانية ...

ويجد جماعات كانت من حياتها الأدبية في جاهلية جهلاء ، تتقلب في حماتها ، وتعمل على ما تقتضيه من اهتمام حقوق المستضعفين ، وواد البنات والبنين ، وتأليه الأقوياء الأعلين ، والرتوع في أقدار الشهوات الجسدية ، وأقذاء المطالب الحيوانية ، طارية من كل المطامح العقلية ، والمراعى العلوية ؛ نقلها محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمة تدن بالكرامة الانسانية ، وتشرب إلى المكنات العقلية ، وتقوم على أرقى المبادئ الحسنية ، وأشرف الأصول الأدبية ، وترعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية ، غير مفرقة بين الضعفاء والأقوياء ، ولا مكترثة بالحوائل التي كانت أقامتها الكبرياء ، وفرضتها الجهالة العمياء .

(١) لم يسع عدد ربيع الأول كل ما يجب أن نكتبه في هذه المناسبة ، فنتدارك ذلك في هذا العدد ، ونضيف إليه ما وصل إلينا من القصائد التي أنشدت في احتفال الأزهر به . أما التفسير الذي قام به حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الإمام في ذلك اليوم ، فسفنشره في باب التفسير عندما نتم نشر تفسير فضيلته لسورة لقمان .

أمة لها مقاصد عالمية ، ومرام قصية ، من توحيد البشرية ، وإحالة أديانها إلى وحدتها الأصلية ، وحسم ما بينها من أسباب الخلافات العرضية .

ومجد فثاما كانت تفخر بالأمية ، وتمتز بالحياة البدوية ، وتباهى بالتحلل من جميع الربط الاجتماعية ، قد استجالت فيها الحاسة الجربية إلى ضراوة وحشية ، والتزعّة الاستقلالية إلى فوضى حيوانية ؛ لا يمتدون بأصل عقلي ، ولا يأنهون بمقرر علمي ، ولا يبالون بنظام عالمي ، انقطعوا في صحاريهم ووديانهم إلى تقاليد موروثة لا ينفون عنها حولاً ، كانوا يقولون كلما نهبهم إلى الانتقال صاهم عليه منذرهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة (أى على طريقة) وإنا على آثارهم مقتدون » ؛ وقد وصفهم الحق بقوله : « إنهم ألقوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون » ؛ وهذا نهاية ما يعرف من الجود على القديم .

فأبث محمد صلى الله عليه وسلم إلا سنين حتى انقلبت حالهم إلى ضد ما كانت عليه ، فرأيناهم منهومين بالعلم ، مشغوفين بالنظام ، معنيين بالترايط والنظام ، قد استجالت ضراوتهم الحربية إلى شجاعة مشبعة بروح الرحمة ، وقافين مع الأصول المقررة ، كأنهم خريجو جامعات ؛ معتدين بالمعارف المحررة ، كأنهم أعضاء أكااديميات ؛ محترمين للنظام العالمي العام ، وعاملين على الاندماج فيه .

وأنجب من كل هذا وأدعى للدهش والحيرة ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم أحاط بإصلاحه هذا بضروب من المناعات والحفاظ وأسباب البقاء وعوامل التطور ، جعلت عمله ثابتاً مستقراً لا يترزع بوفاته ، ولا ينحل بما يطرأ عليه من انتقالات الحكم وآفاته ؛ فأحدث هذا المجتمع الفتيّ القليل العدد في المجموعة العالمية من التحولات ما لم يكن يحلم به أحد ، فزالت بواسطته دول ، وخلفتها دول ، وولدت مبادئ في الدين والأدب والسياسة لم تكن موجودة ، فازعت الحياة مبادئ عتيقة كان لها السلطان المطلق على العقول والقلوب آماداً طويلاً ، واضطرتها إلى الانحسار والانكماش ، وما كانت غير برهة من الزمان حتى تبدلت الأرض غير الأرض ، والمقول غير القول ، فأتجه العالم مدفوعاً بحركة قاهرة إلى الخروج من جود طال عليه الأمد فيه ، وحلت به حياة جديدة كان من آثارها نهوض الشرق من كبوته ، وتنشئه الغرب من غفلته ؛ ولا يزال العالم يتطور تحت تأثير ذلك الانقلاب ولما يتم تطوره ، وإن يوماً من أيام الانتقالات الاجتماعية كألف سنة .

فاذا أراد المتأمل بعد هذا البيان الجميل أن يقدر قدر رسالة محمد بين الرسالات الانسانية التي قام بها الأفاضل ، ولم يكن مؤمناً بالنبوة ، حار أن يجد لها معياراً يزنها به ؛ وإذا عمد إلى المقارنة بينها وبين غيرها لا نقول بمجد البون بعيداً بينهما ، ولكننا نقول لا يجد تلك المقارنة ممكنة .

نعم ، قد نبغ في الأرض مصلحون كثيرون ، ولكنهم دون استثناء جاءوا بالأوليات ، ثم كمل عملهم في قرون كثيرة بواسطة من تتابعوا بعدهم من تلاميذهم . فإن كانوا بسبيل تأليف أمة انحصر جهدهم في وضع الأساس ، لأن أعمارهم لا تتسع لأكثر من ذلك ، وتركوا لمن يجيء بعدهم رفع البناء ؛ وإن كانوا بصدد إصلاح المعتقدات ، وتهذيب العادات ، أتوا ببعض المقدمات ، ووكّلوا لأخلافهم القيام بما يستدعيه هذا الإصلاح من المحاولات ؛ ولكن مجداً جاء بالنهايات ، فوضع أساس الاجتماع وأقام عليه البناء ، وأصلح المعتقدات بعد أن اجتث الوثنية اجتثاثاً لا تقوم لها بعده قائمة هناك ، وهذب النفوس ، وطهر القلوب ، وأثار العقول ، ولم يترك الأمة إلا وهي مثل أعلى لما يمكن أن تكون عليه جماعة من صحة الاعتقاد ، وترابط الآحاد ، وتوحد الوجهات ، وتكافل الطبقات ، وتضافر الهبات على بلوغ أقصى الغايات .

هذا من ناحية بناء المجتمع ، وأما من ناحية النظم التي يجب أن يقوم عليها ، فقد جرت السنن العادية على أن تكون في مبدأ أمرها أولية ، ثم تتطور على طريقة تدرجية ، حتى تصل إلى ما نصل إليه النظم الوضعية ، في مدى آماذ تعد بالقرون ؛ ولكن محمداً خرق هذه السنة ، ولم يترك الأمة إلا بعد أن ترك فيها كتاباً شمل من أصول التشريع ، ومبادئ الاجتماع الراقى من العدالة والمساواة والحرية والديموقراطية وحدود الحقوق والواجبات ، مالم تصل الأمم المتقدمة إلى بعضه إلا في العصور المتأخرة ، بعد قرون قضتها في الانقلابات والفن والثورات .

فاذا كان قصارى رسالة العبقري ، ركناً يقيمه في بناء المجتمع ، أو تجديداً يوفق إليه في ناحية من نواحي النشاط العلمي أو العملي ، ولهذا السبب يحشر في زمرة بناء الانسانية ، ويتنافس البسيكولوجيون في دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وقد يبالغون فيعنون بقياس حجمته ، وتعيين نسبة نمحه إلى سائر جسده ، وفي أية مكانة تضع رسالة محمد ، وبأية نهمة يجب أن يعكف على دراسة شخصيته ، وتحليل نفسيته ، وفي أية زمرة يجب أن يحشر بعد ذلك من مؤسسي الانسانية ؟

من الظلم البين أن نضعه في مستوى أصحاب الرسالات المجازية ، لأن البون سحيق بينهم وبينه ، أفلا يكون من العدل أن نضعه حيث وضع هو نفسه : بشر يوحى إليه ، ورسول خلت من قبله الرسل ؟

هنا تقوم عقبة كأداء في طريق الذين لا يعتقدون بالوحى ولا بالنبوة ، فتراهم قد يعترفون بأن مقام به محمد صلى الله عليه وسلم عمل فذ ليس له شبيه في أعمال المباشرة ، ولكنهم لا يستطيعون أن يعتبروه من آثار عالم مافوق الطبيعة ، لأن هذا العالم عندهم غير موجود إلا في خيال الذين يقولون به ، فكل مافى السكون في مذهبهم كوفى ، وكل عمل يتم فيه طبيعى ، حتى الروح والعقل والنواميس ، والنظم الوجودية ، والإبداعات الصورية والمعنوية .

فهم يقولون : العلم الذي يجب أن يعول عليه دون غيره ، يشترط أن يكون لكل حقيقة دليل محسوس ، ولا دليل لكم على إمكان الوحي ، ولا على النبوة ، إلا ما تنزعونه من خيالكم انتزاعا ، فلا حق لكم في تكليفنا بعقيدة ليس لها أصل تقوم عليه على شرط العلم .

نقول : لو كنتم عنيتم باستيعاب المقررات العلمية ، لما تعذر أن تجدوا للوحي وللنبوة ما يسوغها منها . أما علمتم أن التنويم المغناطيسي أصبح من المقررات العلمية ، وأنه كشف أن للإنسان عقلا باطنيا أرق من عقله العادي ، هذا لا يمكنه أن يستمد معرفته إلا بواسطة آلات وأعصاب ، وذلك يستمدّها بذاته بغير وساطة آلات ولا أعصاب ؛ وهذا إدراكه للوجودات محصور في حدود الحواس ، وذلك إدراكه غير محصور فيها ، فهو يرى ويسمع ويحس ويشم ويذوق ما هو بعيد عنه بألوف الأميال ؛ وهذا تقوم الحوائل المادية عقبة دون إدراكه ، وذلك لا يصدّه حائل عن الإدراك ، فهو متصل بالعالم اتصالا مباشرا على حالة تشعر بأنه من عالم أرفع منه بما لا يقدر ، ولا يحجبه عن الظهور إلا الحالة العادية التي عليها الإنسان ، ولكن متى بطلت هذه الحالة العادية بواسطة النوم المغناطيسي ، خلقتها الحياة الحقيقية للروح ، ورأى رأى العين أنها ليست في حاجة إلى الحواس الخمس في الاتصال بمصادر المعرفة ، وأنها لا تتقيد بحوائل الزمان والمكان ، فاذا كُلفت أن تأتي بخبر من أقصى الأرض ، انتقلت إليه بمجرد الإرادة ، وأنتك بما تسأل عنه كأنه بجوارها ؛ وإن سألتها في أى عالم تعيش ؟ أجابتك أنها متصلة بعالم ما فوق الطبيعة ، وأنها تقابل الأرواح المجردة فيه .

أفلا تدل كل هذه الظواهر المحسوسة على أن للروح الإنسانية اتصالا باطنيا بعالم أرفع من هذا العالم المادى ، تتصل فيه بالأرواح المجردة ، وتستمد منه ما هي في حاجة إليه من القوة والمعرفة ، وأن (العلم الرسمي نفسه) هو الذى كشف هذا الأمر بعد أن دأب على دراسته من سنة (١٧٧٥) حيث أعلنه الدكتور (ماسمر) ، ودأب على تمحيصه الباحثون إلى اليوم ؟ .

هذه حالة العقل الباطن في الإنسان العادى ، فإذا تكون حالة هذا العقل إذا بلغ الإنسان درجة الصفاء ، كما هو عند بعض الأفاضل من الذين اتفق على اعتبارهم رسلا وأنبياء ؟ ألا يكون أشد اتصالا بالعالم الروحاني ، وأكثر قبولا للفيض الالهى ، من طريق غير طريق الحواس ، وهو ما اتفق على تسميته بالوحي ؟

إن (العلم) أثبت بما شاهده من آثار ما أسماه بالعبرة ، أن من الناس من ياهمون بالابداع في بعض النواحي إلهاما من غير طريق التفكير ولا الجهد العقلى ، فيأتون بما لم يسبقهم اليه أحد ولم يكونوا هم يتخيلونه تخيلا ، وكان (العلم) يسجل هذه الحوادث الفذة ، ويمتنع عن تحليلها لاستعصائها على كل علة ، حتى اكتشف العقل الباطن ، وعرف أن له اتصالات باطنية لاعلم لصاحبه بها في (حالته العادية) ، فسهل تحليلها من هذا الطريق ؛ أفلا يمكن تحليل النبوة

بهذه الاتصالات نفسها وإن كانت هذه أرقى من تلك ، وأبعد منها أثرا ، وأرفع شأنا ؟
كلمة ختامية :

إن الذين يمتصمون بالعلم ، ويرون الحكمة في أن يقفوا عند حدوده ، لهم الحق أن يفخروا بموقفهم هذا ، ولكن الواجب عليهم أن لا يتجاهلوا بعض ما وصل اليه ، ليحافظوا على مذهب أهله في عصر غير العصر الذي يعيشون فيه .

نحن اليوم في نحو منتصف القرن العشرين الذي ثبت فيه عمليا أن المادة أصلها القوة ، وأنه يمكن إفناء أية مادة عمليا ، وأن المذاهب الفيزيولوجية التي حاول أصحابها في عصر مضى أن يثبتوا بها أن العقل إفراز مخي ، وأن الحياة نتيجة الاحتراقات المادية في الخلايا ، وأن الشخصية الإنسانية نتيجة التركيب الجسماني ، هذه المذاهب قد أخذت حظها من انخداع العقول بها ، ثم سقطت دولتها أمام ظواهر التنويم المغناطيسي ، والمباحث البسيكولوجية الأخرى . وقد اعترف علماء لايشق لهم غبار بهذه الحقيقة على رؤس الأشهاد .

قال البهائية المشهور (جابريل دولان) في كتابه (المذهب الروحي أمام العلم) بعد أن ذكر ما قوبل به اكتشاف التنويم المغناطيسي من المعارضات قال : « أما اليوم فقد حدث في مصلحته رد فعل عظيم ، فانك ترى الجرائد على اختلاف صبغاتها وأماكنها ، والمجلات الطبية أيضا ، مشغولة بذكر ظواهره العجيبة ، وحوادثه المدهشة »

وقال العلامة الدكتور شاركو وهو من أقطاب النهضة الطبية العالمية في هذا العصر : « النوم المغناطيسي عالم تجد فيه بجانب الظواهر التي يمكن تعليلها بعلم الفيزيولوجيا ، ظواهر أخرى فوق الطبيعة لم يستطع أحد تعليلها للآن ، ولا تتفق وأى مقرر فيزيولوجي »
وقال الأستاذ العلامة (بيو) في كتابه (المخاطبات على المغناطيس الحيوى) :

« النوم المغناطيسي يثبت وجود الروح وخلودها ، ويبرهن على إمكان اختلاط أرواح متجردة عن المادة بأخرى لم تزل مكتسية بالمادة » .

هذا أثر التنويم المغناطيسي الذي يتجاهل منكرو عالم ما فوق الطبيعة أمره ، وليس هذا من القيام بحق الأمانة العلمية في شيء .

هذه كلمة أقولها على عجل ، ذكرى لمن كان له قلب ، مستندلا بها أن العلم الذي يتحكمكون به في إنكار عالم ما فوق الطبيعة ، ليس هو اليوم بالعلم الذي كان ينكر كل ما يجبهه ، ولكنه علم اكتشف من آثار العالم العلوى ما جعله يعضى قدما في سبيل الاستكثار من ظواهره ، وفيها من الدلائل المحسوسة على وجوده ما لا يدع للشك فيه مجالا ؟

محمد فريد ربهري

فلاسفة الاسلام

ومزلتهم من الفلسفة العامة

بقى علينا بعد الذي أثبتناه في السكمتين السالفتين من أن فلاسفة الإسلام هم فلاسفة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، أن نقبين منزلتهم في تاريخ الفلسفة العامة ، وهذا أمر قد أصبح ميسورا الآن ، لأن البحث - بعد أن كان في القرن التاسع عشر لا يعنى ألبتة بدراسة الأشخاص ، وإنما يعنى بدراسة النواميس الكونية وما يتفرع عنها من أحداث وتطورات كما أعلن « أوجست كونت » و « هيغيل » و « رينوفيه » أنه يجب الانشغال بالقوانين الفلسفية لا بالفلاسفة - قد تحول في هذا العصر الحاضر الى العناية بالفلاسفة الذين ابتدعوا تلك النظريات . وهذا المنهج الجديد أقدر على إجابة الفروق بين المفكرين التي هي أساس الفروق بين النظريات . وقد سمح للمستشرقين بأن يتبينوا القيمة الحقيقية التي فاز بها فلاسفة الإسلام بين صفوف المفكرين العالميين ، وأن يقدرهم حق قدرهم ، ويمترفوا لهم في كتبهم بشهادات نحب أن نذكر منها هنا طرفا على سبيل الاستقناس . قال الأستاذ مانك :

« إن ابن سينا كان أحد أولئك العباقرة الذين هم فوق المستوى العادى ، وأحد الكتاب المفرطى الخصوبة ، فانه في وسط وظائفه العامة وأسفاره العديدة وفي حياته المضطربة بالعواصف السياسية والمأتمجة بالآهواء والرغبات ، قد وجد من الوقت ما يسمح له بتأليف عدد من المؤلفات الهائلة التي يكفى واحد منها لأن يضمن له مكانا في الصف الاول بين المفكرين [١] » .

قال الأستاذ كارادى فو في آخر كتابه عن ابن سينا :

« الآن وبعد أن انتهيت من هذا المؤلف ، وفي الوقت الذي أفارق فيه لا قرأنى لحسب ، بل وأفارق فيه هؤلاء الاموات النبلاء الذين كونت أفكارهم موضوع هذه الدراسة ، لا أريد أن أضيف الى ما قدمته إلا كلمة وجيزة أعبر بها عن السرور الذي أحسست به في قضاء بضعة أشهر على صلة بأولئك الرجال الذين كان لهم ثقة وإيمان بالعقل ، والذين فكروا على ضوء القانون المنطقي ، والذين أبانوا في كل لفظة ما تستطيع أن تحتمله من معان ، والذين آمنوا بالحقيقة العامة واعتقدوا أنها خالدة ، والذين اعتبروا أن الفلسفة هي العلم ، والذين علموا الناس أن السياسة جزء من العلم ، والذين رأوا أن الدول يجب أن يحكمها الحكماء ؛ أولئك الرجال ذوو القلوب الكبيرة الذين إيمانهم بأن العقل محدود ، وبأن فوقه نوعا من المعرفة البصرية التي تدفع

[١] انظر صفحة ٣٥٥ من كتاب مزيج بين الفلسفتين اليهودية والعربية .

النفس الى الانفاس في تنسك لم يحملهم على الإقلال من الإجلال الذي كانوا يحيطون به العقل ؛ أولئك الرجال ذوو العقول الواسعة الذين يجدر امتداد معارفهم وتمدها بآثاره الحسد في نفوس هواة المتخصصين من العلماء في عصرنا الحاضر ، ما دام أولئك القدماء قد حاولوا بكل ما أوتوا من قوة في عصورهم أن يفهموا جميع النظريات والمذاهب ، ولم يعرفوا أى حائل يقف بينهم وبين البحث العقلي .

« أولئك الذين أرادوا أن تكون جميع حقول النشاط البشري مفتحة أمامهم ، والذين نزلوا وصعدوا بسهولة متعادلتي كل درجات سلم الكائنات : من الأرض العميقة الى الفلك الأعلى ، ومن ظلام المادة الغير القابل للإدراك ، الى بهر نور العقل المجرد بقدر ما تسمح به طبيعة الذهن البشري » .

أما منزلة أولئك الفلاسفة في تاريخ الفلسفة العام من الناحية الفنية المحضة فهي منزلة جليلة الخطر لثلاثة أسباب هامة نجملها فيما يلي :

السبب الأول : هو أن الفلسفات الإغريقية والهندية والفارسية في الوقت الذي ظهر فيه الإسلام كانت قد انحدرت الى الحضيض أمام صدمة الديانة المسيحية ، فلما ظهرت النهضة الإسلامية كانت نجاة هذه الفلسفات كلها على يدها ، ولم يقتصر أولئك الاعلام على إنقاذها ، بل منحوها من مجهودات عقولهم الجبارة ما أعاد إليها شبابها وأضاف إليها قوى جديدة لم يكن أنصارها الأولون كأفلاطون وأرسطو وأفلوطين أو كاييلا ، وما في ومزدك ، يحملون بها .

السبب الثاني : هو هذه المبتدعات العظيمة التي أشرنا الى طرف ضئيل منها في السكمتين السابقتين ، والتي أعادت الى الانسانية شرف ميزة التفكير القويم بعد أن كادت تفقده في عصور الجهل والاضطراب .

والسبب الثالث : هو ذلك التأثير الخطير الذي طبع به فلاسفة الاسلام عصور القرون الوسطى الغربية وعصر النهضة الأوروبية ، وذلك مثل تأثير ابن سينا في فلسفات : « جيوم الاوفيرني » و « البير الأكبر » و القديس توماس الاكوييني ، وهذا الاخير هو أعظم مفكرى القرون الوسطى الغربيين على الاطلاق .

ومن يدرس نظريات وحدة العقل وخلود النفس والهيولى النوعية وغيرها في كتب هؤلاء الفلاسفة يتبين له مقدار تأثيرهم بفلاسفة الاسلام ، بل تتلمذ عليهم بهيئة لا تدع أقل مجال للريب في هذا التفوق العقلي وفي المقدرة على تجريد الصور العقلية وفصلها عن المحسوسات والسمو بها الى المعنوية المحضة التي تعجز العقليات الفوق المتوسطة عن التناول الى إدراكها ، وليس هذا فحسب ، بل إن تأثير ابن رشد في آراء الاكثرية الممتازة من أساتذة جامعة باريس أمر لا سبيل الى الشك فيه ؛ ومن أمثلة ذلك أن الأستاذ « سيجيه الباراباني » وصاحبيه قد بلغ

من نقوسهم الاقتناع بصحة مذهب ابن رشد حدا حملهم على الخروج على السلطة الدينية ، وظلوا يؤيدونه في دروسهم حتى قبض عليهم وزج بهم في غيابة السجن لا شئ إلا لانتصارهم للفلسفة الرشدية .

ومجمل القول أن من يتتبع الثورة العقلية التي أحدثتها نظريات فلاسفة الاسلام ولا سيما ابن رشد ، يبين له أن أهمية هذا الفيلسوف قد بلغت في أوروبا حدا لم تبلغ عشر معشاره في البيئات الاسلامية ، إذ أنه ظل بطل المعارك العلمية التي اشتعل أوارها في أواخر القرون الوسطى في أوروبا حتى نهايتها في العصر الحديث ، فكانت المحاورات تدور حول كتبه ومؤلفاته تكتب لشرح مذهبه ، والمحاضرات تلقى في تفسير آرائه . وكان فريق يصفه بأنه منير العقول ، وآخر يرميه بأنه مبدع الشك أو منكر الديانات أو هادم الحق كما أبنا ، ولكن جميع علماء تلك العصور - إذا استثنينا منهم واحدا أو اثنين - كانوا متفقين على أنه أقدر شراح أرسطو على الاطلاق . ولهذا كان خصومه أنفسهم من رجال الدين المتعصبين لا يستطيعون الامتناع عن إجلاله .

ولم يكن هذا التأثير للفلسفة الإغريقية بوساطة فلاسفة الاسلام كما زعم بعض المتحاملين ، وإنما هو طابع هؤلاء الفلاسفة أنفسهم وأثر أفكارهم الشخصية التي لم تدر للإغريق بخلد . وليس على من يرتاب في هذه الحقيقة إلا أن يرجع الى مشكلة « العام المشترك » وهل له وجود ذاتي أو هو في الذهن فقط أو في المحسّات ثم ينتقل منها الى الذهن وما دار حول هذه النظرية من جدل وما أبدعه الاسلاميون فيها من أفكار ، فإنه سيمود مقتنعا بصحة ما نقول .

وأخيرا نستطيع أن نقرر مع الباحثين المحمديين أن أثر ابن سينا لا يزال يطبع كثيرا من المفكرين في عصرنا هذا بطابعه ، فالاستاذ « جوينو » يذكر لنا قائمة بأسماء عدد غير يسير من مفكرى الفرس المتأثرين بابن سينا منذ القرن السادس عشر الى العصر الحاضر (١) .

الآن وبعد هذه اللمحة الوجيزة التي اتسع لها المقام ، نستطيع أن نؤكد أن منزلة أولئك الفلاسفة بين صفوف المفكرين العالميين جليلة ، وأنه على الرغم مما كتبه المستشرقون عنهم من بحوث مستفيضة لا يزال الكثير من نواحيهم سرا مكنونا في صدور مؤلفاتهم العظيمة ، وأن الشرق في أشد ما يكون حاجة الى التنقيب عن هذه الاسرار ليتمكن بوساطتها من استعادة مكانته الدائرة ومجده الغابر .

المرکز محمد غموب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

جاء في المقال السابق المنشور في العدد الثالث ص ١٠٩ س ١٦ « إن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه واحد » وهو خطأ ، والصواب « إن الواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا واحد »

حَيَاتُ جَلِيلِ النَّبِيِّ ﷺ

عثمان بن عفان

— ٤ —

كان عثمان رضى الله تعالى عنه ثالث ثلاثة في الاسلام هم أفضل الناس وخيرهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم أعظم المؤمنين أعمالاً في تأييد الدعوة ونشر الدين وإقامة الشريعة المطهرة والجهاد في سبيل الله ، ولأنهم أخص الناس وأقربهم إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا وزراءه وأعوانه على تأدية رسالته ، خلطهم بنفسه وصاهرهم حتى تكون لهم لديه الزلقة ؛ روى البخارى في الصحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : « كنا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لانهل بأبى بكر أحداً ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم ترك أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا تفاضل بينهم »

وقد كان لعثمان رضى الله تعالى عنه في الإسلام من جلائل الأعمال ما يجعله حريزاً بهذه المنزلة السامية في تقدير سادة الأمة وخيارها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يرى هذا التقدير ويزكيه بالثناء على عثمان ، وحبوه بما حبا به الشيخين رضى الله عنهما من منزلة القرب والاختصاص ، تأكيذاً لعقيدة المؤمنين ومحبتهم لدى النورين ؛ روى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : « صعد النبي صلى الله عليه وسلم أحداً ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعثمان فرجف بهم ، فقال : اثبت أحد فاعلم عليك نبى وصديق وشهيدان » . وروى أيضاً عن أبى موسى رضى الله عنه قال : « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في حائط من حيطان المدينة ، فجاء رجل فاستفتح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو أبو بكر ، فبشرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، ثم جاء رجل فاستفتح ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : افتح له وبشره بالجنة ، ففتحت له فإذا هو عمر ، فأخبرته بما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، ثم استفتح رجل ، فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم : افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ، فإذا عثمان ، فأخبرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله ، ثم قال : الله المستعان » . وفي هذا الحديث معجزة عظمى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث أشار إلى ما سيحدث لعثمان رضى الله عنه . ويوضح ذلك ما رواه ابن عبد البر عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعوا لى

بعض أصحابي ، فقلت : أبو بكر ؟ فقال : لا ، فقات : عمر ؟ قال : لا ؛ فقلت : ابن عمك علي ؟ قال : لا ، فقلت : عثمان ؟ قال : نعم ؛ فلما جاء قال لي يسده ، فتنحيت ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسارته ، ولون عثمان رضى الله عنه يتغير ، فلما كان يوم الدار وحصر ، قيل له : ألا تقاتل ! قال : لا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى عهدا وأنا صابر نفسي عليه .

وكان عثمان رضى الله عنه — على لين عريكته ودمائة خلقه — من أحكم الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا . وقد عرف له ذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم أن دعاه إلى الإسلام فلم يتأجلج ، وهو في ذلك الوقت شاب ثرى مترف في لدانه من شباب قريش ؛ ذكر ابن حجر في الإصابة « أن سعدى بنت كرز خالة عثمان — وكانت تكهن في الجاهلية — أخبرته بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، قال عثمان رضى الله عنه : فوقع كلامها في قلبي ، فجعلت أفكر فيه ، وكان لي مجلس عند أبي بكر ، فأصبته في مجلس ليس عنده أحد ، جلست إليه ، فرآني مفكرا فسألني عن أمري ، وكان رجلا متأنيا ، فأخبرته بما سمعت من خالتي ، فقال : ويحك يا عثمان ! إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل ، ما هذه الآوثان التي يعبدونها قومنا ؟ أليست من حجارة صم لا تسمع ولا تبصر ؟ قلت : بلى ، إنها لكذالك ، فقال : والله لقد صدقتك خالتك ، هذا رسول الله محمد بن عبد الله قد بعثه الله برسالاته إلى خلقه ، فهل لك أن تأتيه لتسمع منه ! قلت : بلى ، فر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه علي بن أبي طالب ، فقام أبو بكر فسارده في أذنه بشيء ، فأقبل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا عثمان أجب الله إلى جنته ، فإني رسول الله إليك وإلى خلقه ، فما تما لك نفسي حين سمعت قوله أن أسلمت »

ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى كان عثمان فيمن أذهلتهم الطامة وأخرس فلم يستطع الكلام ، وكان يذهب به ويحاج فلا يبدى شيئا ؛ وقد تدارك الله برحمته الإسلام واستقر الأمر بعد السقيفة ببينة الصديق رضى الله عنه ، فكان عثمان كاتبه ووزيره الثاني بعد الفاروق ؛ وكان أبو بكر رضى الله عنه يعظم شأن عثمان ويراها أهلا للخلافة كما رويناه في كتابه باستخلاف عمر رضى الله عنه ، وكان يملئ على عثمان في مرض موته ، فأخذت الصديق غشية ، فغشى عثمان أن تذهب فيها نفسه ولم يكن سمى الخليفة من بعده ، فأسرع عثمان بكتابة اسم عمر ، وكان الصديق قد استشار أكابر الصحابة فيه فأروه رضا للإسلام والمسلمين ، فلما أفاق أبو بكر من غشيته استقرأ عثمان ما أملاه عليه فوجده قد كتب اسم عمر حرصا على اجتماع الكلمة ، فسر أبو بكر بعمل عثمان لأنه لم يجاوز ما في نفسه .

كان عثمان رضى الله عنه لأبي بكر الصديق مخلصا أمينًا وازره ويؤيده بنفسه وماله ، وكذلك كان من بعده لخليفته الفاروق وزير صدق ومعاون خير يشد أزره ويقوى ساعده حتى ضرب الإسلام بجرانه في أقطار الأرض ، واتسعت فتوحاته ، وتكاثر الخيرات على المسلمين

وانقسح سلطانهم ، ولحق عمر رضى الله عنه بصاحبيه بعد أن وضع للناس أسس الشورى في الرهط الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، وتمت بيعة عثمان رضى الله عنه بيعة إجماعية من الكافة والخاصة مندفعين بحب لعثمان تنطوى عليه جوانحهم منذ أن أظلمهم مع عثمان لواء الإيمان .

عنون البخارى لبيعة عثمان بقوله « باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان رضى الله عنه » ثم ذكر بعده حديثنا طويلا ، ونحن نلخص منه وعن يجرى في شوطه ثقة وصحة حديث الشورى لما فيه من الفوائد فيما نحن بسبيله :

لما أحس المسلمون بدنو أجلهم قالوا له : أوص يا أمير المؤمنين ، استخلف ، فقال : أتحمّل أمركم حيا وميتا ؟ لوددت أنى أحظى منها بالكفاف ، لا على ، ولا لى ، وإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى ، يعنى أبا بكر ، وإن أترككم فقد ترككم من هو خير منى ، رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عبد الله بن عمر : فعرفت أنه حين ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مستخلف . ثم قال : ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، فسمى عليا ، وعثمان ، وطلحة ، وسعدا ، وعبد الرحمن ، وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شئ ، كهيئة التنزية له ، فإن أصابت الإمرة سعدا فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر ، فأنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة ، ثم دعا لهم فقال : اللهم ألهمهم ، واجمعهم على الحق ، ولا تردهم على أعقابهم ، وول أمر أمة محمد خيرهم ! وتوفى من يومه ، وصلى بالناس صهيبة ثلاثة أيام بأمره .

اجتمع رهط الشورى في حجرة عائشة باذنهم بعد دفن عمر رضى الله عنه ، فتشاوروا فلم يبرموا شيئا ، فقال عبد الرحمن بن عوف رضى الله : اجعلوا أمركم الى ثلاثة منكم ، فقال الزبير : قد جعلت أمرى الى على ، فقال طلحة : قد جعلت أمرى الى عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمرى الى عبد الرحمن ، فقال عبد الرحمن لعثمان وعلى : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعل له اليه ؟ والله عليه والاسلام لينظرون أفضلهم في نفسه ، فأسكت الشيخان ، فقال عبد الرحمن : أفجعلونه الى والله على أن لا آلو عن أفضلكم ؟ فقال عثمان رضى الله عنه : أنا أول من رضى ، فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عبد الرحمن أمين في السماء أمين في الأرض » . فقال القوم : رضينا ، ثم قال لهم عبد الرحمن : مكانكم حتى آتيكم ، وخرج يتلقى الناس في أنقاب المدينة مثلما لا يعرفه أحد ، فترك أحدا من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم ، أما أهل الرأي فأتاهم مستشيرا ، وتلقى غيرهم سائلا ، يقول : من ترى الخليفة بعد عمر ؟ فلم يلق أحدا يستشير به ولا يسأله إلا ويقول : عثمان . فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان ، أتى منزل المسور بن مخرمة بعد الجمعة من الليل فأيقظه ،

فقال : ألا أراك نائمًا ، ولم أذق في هذه الليالي نومًا ! ادع لي فلانا وفلانا - تقرا من المهاجرين - فدعوتهم ، فزاجهم طويلا ، ثم قاموا من عنده فخرجوا ، ثم دعا عليا فزاجاه طويلا ، ثم دعا عثمان فزاجاه حتى فرق بينهما أذان الصبح ، فلما صلوا جميعا وقد ارتج المسجد بالناس أخذ بيد علي كرم الله وجهه فقال له : لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقدم في الاسلام ما قد علمت ، فإله عليك لئن أمرتك لتعدلن ، ولئن أمرت عثمان لتسمن ولتطيعن ، ثم أخذ بيد عثمان فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك يا عثمان فبايعه ، فبايع له على وبايعه الناس جميعا .

هذه صورة موجزة لقصة الشورى وبيعة عثمان رضى الله عنه ، وهي تعطينا صورة واضحة للحكم الاسلامي كما كان يفهمه خير المسلمين وأعلمهم بشهادة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فالخليفة الراشد الفاروق إذ قيل له : استخلف ، يستعرض شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشأن الخليفة الاول الصديق رضى الله عنه ، فيرى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، ويرى أبا بكر قد استخلف ، وترجح عنده خطة النبي صلى الله عليه وسلم كما فهم ذلك عبد الله ابن عمر ، فيعمل بها ولم يستخلف ، ولكنه لا يترك الامر دون سياج ، وقد خبره في خلافة أبي بكر ، بل تقدم الى الامة فرشح لها من يصالحون لخلافها تضيقا للدائرة وتقريبا للامر ، ثم ترك تعيين أحد هؤلاء المرشحين الى حكم الامة ، وهذا من أحكم التدبير والسياسة ؛ وقد نفذ عبد الرحمن بن عوف خطة الشورى بما دل على شرف عقله ، ونبل نفسه ، وإشارته لخير الامة على نفسه .

وهذه القصة كشفت عن مكانة عثمان في قلوب الامة ، وأبانت أن بيعته كانت على أساس الشورى المطلقة ، وتمت باجماع الامة ، وأن عليا كرم الله وجهه كان أول المبايعين له ؛ ولما تمت لعثمان البيعة خطب الناس فقال : « الحمد لله ، أيها الناس اتقوا الله فإن الدنيا كما أخبر الله عنها لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والاولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتهرب منه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . نغیر العباد فيها من عصم بالله واستمعصم بالله وبكتابه ، وقد وكلت من أمركم بعظيم لا أرجو العون عليه إلا من الله ، ولا يوفق للخير إلا هو ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب »

صادق ابراهيم عمره

كتاب في الأخلاق الإسلامية

فلسفة الاخلاق

بين الاغريق والمسلمين

أبدأ بعون الله وجميل توفيقه الكتابة في دراسة الاخلاق في الاسلام على نحو جديد ؛ دراسة عميقة مقارنة ، تقوم على تعرف مذاهب الفلاسفة البارزين وخصائص كل منها ، وعلى تبين أصول كل مذهب وكل فكرة أساسية من أفكار صاحبه في الثقافات الاغريقية ممثلة في أعلامها الظاهرين ، وعلى بيان مقدار أثر السابق في اللاحق ، سواء أكان السابق من فلاسفة الاغريق أم من مفكرى الاسلام . والمقصد الذى أهدف اليه من هذه الدراسات الشاقة الممتعة في وقت معا ، هو أن نعرف بالقدر الذى يمكن منه الجهد والزمن ، أصول الأفكار وتطورها في خلال العصور ، ومبلغ ما كان لهذا وذاك من أساطين الاخلاق من ابتكار ، حتى نعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

وقد تقودنا الدراسة الى أن ينكشف واحد أو أكثر من رجالنا بعض الشيء ، فيظهر أحدهم غير محوط بما تعودنا أن نراه محوطا به من هالات الجلالة والاكبار ، فلا تتعاطم هذا ولا نراه نكرا ، ما دامت الدراسة تقوم على منهج البحث التحليلي الحديث ، وما دما لا نرجع إلا للموثوق من المراجع والأصيل منها ، وما دام لا يطلب من الدارس الباحث إلا أن يجعل قبلته الحقيقة يبحث عنها جهده ، ويصدق بها ، رضى الناس أو سخطوا .

وقد رأيت أن أقدم لهذه الدراسة بمقدمة عن التفكير الاخلاقى للعرب قبل نقل الفلاسفة الاغريقية للغة العربية وهضمها والإفادة منها ، ليكون البحث له أساسه وأدنى للكمال ، ولتسلم حلقاته بعضها الى بعض ، والله المستعان .

يقول باسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢ م) الكاتب الفرنسى المعروف : « لا يوجد تقريبا شيء عادل أو غير عادل إلا ويغير من صفته تغير إقليميه . ثلاث درجات في الارتفاع الى القطب تقلب رأسا على عقب كل ما عرف من عدالة . خط واحد من خطوط الطول يتحكم في الحقيقة والحكم الخلقى ... الحق له بيناته وأعصره . عدالة مضحكة هذه التى يحدها نهر ! حقيقة أمام جبال » البرينيه ، خطأ وضلال وراءها ! (١) ويرى العلامة « ليتربيه - Littré » ، زعيم

(١) عن كتاب الفلسفة العلمية والفلسفة الأخلاقية للأستاذ « شالي - Chalaye » ص ٢٤٣

المدرسة الواقعية في فرنسا بعد « كومت » في كتابه أصل فكرة العدالة - مستندا الى حقائق لا شك فيها - أن فكرة العدالة لم تكن عند الشعوب القديمة ، ومنها اليونان في عصورهم الأولى والجرمان ، يفهم منها إلا فكرة تعويض المعتدى عليه عما أصابه على يد المعتدى ؛ حتى كان إذا دفع الجاني تعويض ما جنى سار رافعا الرأس شأن من لم يقترب جرما ، بل إنه ليمن على الجاني عليه أن كان سبب ما وصله من خير ونعمة في شكل تعويض (١) .

ولكن مهما كانت آراء هذين المفكرين وأمثالهما من الباحثين في أصل الشعور الأخلاقي وأنه فطري وإن كان يكمل بالتربية الطيبة ، أو كسبي مرده كله الى العادات والتقاليد - مهما كان الأمر فإن الحق - فيما نرى - أن الضمير في جرثومته الأولى فطري ، عرف به الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأزمانهم أصول الأخلاق وإن اختلفوا في التطبيقات .

العدالة فضيلة ، ويجب أن يؤخذ الجاني بما جنى ؛ هذه حقيقة عامة لا يحدها نهر أو جبل ، وعرفها اليونان وغير اليونان من الشعوب القديمة ، وتعرفها الشعوب الحديثة اليوم .

وسواء لدينا بعد هذا أن يكون تحقيق العدالة بأخذ العين بالعين والسن بالسن ، أو بتعويض يدفعه المعتدى كما كان عند الشعوب التي يتكلم عنها مسيو « ليريه » .

والصدق والأمانة كذلك فضيلتان ، يقر بهذا الناس جميعا : البيض والسود ، والصفر والحر ، والعرب والعجم ، والأوائل والأواخر ؛ ولا على من يرى هذا الرأي أن يكون بعض القبائل أو الأديان في المصور الأولى ، من ضيق الصدر والافق ، بحيث لا يرون ذلك فضيلة فيما بينهم .

إن هذا الفهم قد يفسر بحق بأن هؤلاء - مع اعترافهم بأن الصدق فضيلة وأن الكذب فضيلة - لا يريدون أن يكونوا فضلاء أو متفضلين مع من يرونهم لهم أعداء . وسنجد من الكلام على الضمير عند الغزالي فرصة لتتيمم بحث هذا الموضوع ، إن شاء الله تعالى ، إلا أننا نقول هنا في إجمال : إن اتفاق الأمم والشعوب جميعا على كثير من الحقائق الأخلاقية دليل على أنه ما من شعب - مهما كان حظه قليلا من الحضارة والمدنية - إلا وله حظ من الأخلاق والتفكير الأخلاقي .

والعرب كأمة من الأمم ، اضطرت للاجتماع فيما بينها ، ولإنشاء علاقات بينها وبين ما اتصل به من أمم وشعوب أخرى ، كان لها بلا شك نصيب من الأخلاق ينمايشون به . ولما أخذت في الرقي تدرجت في التفكير الأخلاقي ، حتى صار لبعض مفكرها مذاهب في الأخلاق بعد أن عرفوا الفلسفة الاغريقية وغيرها من ألوان التفكير للام القديمة .

(١) عن كتاب : دروس في الأخلاق للاستاذ « ماريون - Marion » بكلية الآداب

والذي يهمنا نحن الآن هو تعرف ما كان للمسلمين من التفكير الأخلاقي قبل عصر الفلسفة والفلاسفة ، أى قبل أن تنقل اليهم الفلسفة اليونانية ويتأثروا بها ، ليكون هذا مقدمة لدراسة المذاهب الأخلاقية لفلاسفة الإسلام ، ومبلغ تأثرها بالتقافات القديمة ، وبخاصة الثقافة الاغريقية .

* * *

الدارس للعرب في الجاهلية يعرف أنه كان لهم حكم تدور على أسفتهم نثرا وشعرا ، وآداب بها يتواصون ، وأخلاق بها يفخرون ؛ وكل ذلك ينتقل - بمامل الوراثة والبيئة - من جيل الى جيل ، حتى صح للعُجَير السلولى بمد ما وصف نفسه بالعفة ورعاية الجار وما له من حقوق أن يقول :

كذلك هدى آبائى قديما توارثه النجار عن النجار

وهذه الحكم والآداب والأخلاق ، وإن زخرت بها كتب الادب شعره ونثره ، قديكون من الخير أن نمثل لها بمثل معدودة من الشعر والنثر . فن الاول قول السموءل :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
وقول عبيد بن الأبرص :

صبر النفس عند كل ملء لم إن فى الصبر حيلة المحنل
ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال
وقول زهير بن أبى سلمى :

ومن يجعل المعروف فى غير أهله يمد حمده ذما عليه ويندم

ومن الثانى ما أثر عنهم من هذه الامثال والوصايا : « من سلك الجدد أمن العثار . إن الحذر لا ينجى من القدر . آفة الرأى الهوى ، وسوء الظن عصمة . اترك الشرك يتركك . إذا قام جناة الشر فاقعد » . ومنها ما أوصى به زهير بن جناب السكبي بنيه إذ يقول : « يا بنى قد كبرت سنى ، وبلغت حرسا من دهرى [١] ، فأحكمتنى التجارب ، والأمور تجربة واختبار ، فاحفظوا عتى ما أقول ، وعوه : إياكم والخور عند المصائب ، والتواكل عند النوائب ؛ فإن ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب ؛ وإياكم وأن تكونوا بالأحداث مغترين ولها آمين ومنها ساخرين ، فانه ما سخر قوم قط إلا ابتلوا ، ولكن توقعوها فان الانسان فى الدنيا غرض تعاوره الرماة ؛ فقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لا بد أن يصيبه » .

فلما جاء الاسلام أقر ما كان عليه العرب من آداب ما رآه صالحا لبناء أمة وإنهاض شعب، ونهى عما رآه سيئا، وجاءهم — فيما جاءهم به من وصايا وحكم — بأحسن الأخلاق التي يقوم عليها صلاح المرء في نفسه وأسرته وخطائه وأمته .

أدب الله نبينا - تأديبا لنا - بأحسن الآداب ، ونظم له - كما يقول ابن عبد ربه - مكارم الأخلاق في ثلاث كلمات ، فقال : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » . ففي أخذه بالعفو صلة من قطعه ، والصفح عن ظلمه ؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله ، وغض الطرف عن المحارم ، وصون اللسان عن الكذب ؛ وفي الإعراض عن الجاهلين تنزيه النفس عن مجازاة السفیه ، ومنازعة اللجوج ؛ كما أمره الله أيضا أن يكون لنا في عريكته ، رفيقا بأمته ، وأن يدفع السيئة بالتي هي أحسن حتى يستل سخائم النفوس وأحقاد الصدور ؛ وقد رعى الرسول الحكيم صلى الله عليه وسلم هذه الآداب فكان مثلاً أعلى لها ، وعمل على تأديب أمته بها ، فكان من حديثه أنه قال : « أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها : أوصاني بالإخلاص في السر والعانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أغفو عن ظلمي ، وأعطى من حرمي ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صمتي فكرا ، ونطقي ذكرا ، ونظري عبرة » . كما كان أيضا من حديثه : « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » .

هذه الآداب التي جاء بها القرآن والحديث كانت كافية لتأديب العرب دون حاجة إلى غيرها ؛ إلا أنهم ضموا إليها لونا ، بل ألوانا أخرى ، من آداب الأمم التي اتصلوا بها بعد اتساع رقعة الاسلام ، فأخذ تفكيرهم الأخلاقي يتطور على ماسيجي في الكلمة التالية إن شاء الله تعالى ؟

الحديث موصول

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين

عقائل الصفات

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري رضى الله عنه يطلب إليه أن يجمع له أمر الدنيا ويصف له أمر الآخرة ، فكتب إليه :

إنما الدنيا حلم والآخرة يقظة ، والموت متوسط ، ونحن في أضغاث أحلام ، من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر في العواقب نجح ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف سلم ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم ، ومن علم عمل ؛ فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع ، وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فامسك ؛ واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه .

هل أدى العلماء واجبهم الدينى ؟

سؤال يدور كثيراً على ألسنة بعض الناس ، وأكثر ما يكون دورانا على ألسنة الجاهلين لمعنى واجب العلماء الدينى ، أو المتجاهلين جهود العلماء وفضلهم فى أداء ذلك الواجب ؛ ويحسن بنا قبل أن نجيب على هذا السؤال أن نصور معنى هذا الواجب ونوضحه بعض التوضيح لئلا يمكننا أن نجيب فى ثقة واطمئنان .

العلماء ورثة الأنبياء . بهذا الأثر تقرر إجمالاً واجب العلماء ، ولا يعنى بهذا الأثر أن العلماء ورثة الأنبياء فى أموالهم وضياعهم ، فليس للأنبياء أموال تورث ، أو ضياع تقسم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، ولا يعنى به أيضاً أن العلماء ورثة الأنبياء فى تلقى الوحي وجواز التشريع ، فذلك شأن الرسل خاصة ؛ وإنما يعنى به أن العلماء ورثة الأنبياء فى حمل الشرائع وتبليغها للأمم ، وتبيانها تبياناً يمكن معه العمل بها وتحقيق الغاية التى أراد الله من أجلها أن يرسل الأنبياء إلى الأمم « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً » ؛ كما يعنى به أيضاً أنهم ورثة الأنبياء فى تنبيه الأمم للعمل بهذه الشرائع ، والوقوف عند حدودها ، وتخويفهم بعاقبة مجاوزتها والتفريط فيها . ويزيد هذا الواجب بياناً قول الله سبحانه لمحمد عليه السلام : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ؛ وقوله : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، وقوله : « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ، وقوله لمحمد ولأمته : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ، وقوله : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . وما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « على بخلفائى » قالوا : ومن خلفاؤك ؟ قال : « الذين يحيون سنتى يعلّمونها عباد الله » . فواجب العلماء كورثة للأنبياء بمقتضى هذه الآيات وذلك الحديث أن يدعوا عباد الله إلى شريعة الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يذكروهم بها ، وينبهوهم للعمل بأحكامها والوقوف عند حدودها ، ويخوفوهم بعاقبة التفريط ومجاوزة حدودها ، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، على أن يكون ذلك باللين والرفق ، وبمراعاة الأحوال مع تخير الأوقات والمناسبات .

هذا هو واجب العلماء الدينى . فهل قصر العلماء فى القيام به ؟ إنى أقول بصريح العبارة وفى صدق وعن اعتقاد : لا ، لا ، وأكررهما حتى تبلغ آذان اللائعين إن كانوا يسمعون .

أجل ، لا ، فما شكنا متعلم حاجته إلى التعليم الديني ، وما شكنا الشعب قلة العلماء ، بل إنه ليشكو البطنة منهم ؛ ففي مدن القطر وقراه ، ودساكره وكفورده ، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب مساجد بكل منها إمام يقيم الصلاة ويخطب الناس في الجمع والأعياد ، وعليه مع ذلك أن يدارس العامة بعدد من الدروس يؤخذ بالتفريط فيها . وفي القطر وعاظ ومرشدون درسوا طرق الوعظ وأساليب الدعوة على أحسن الوجوه ، وشهد بكفائتهم وحسن أثرهم ممثلو الحكومة في جميع الأقاليم .

وفي كليات الأزهر ومعاهده مدرسون يقومون بتعليمهم من تعليم العامة وتهذيبهم التهذيب الديني فضلا عن واجباتهم الرسمية في معاهدكم وكلياتهم . وغير هؤلاء وهؤلاء كبار طلاب الكليات والمعاهد بل وصغارهم - وهم ألوف - منبثون في كل صقع وناحية ينهضون بما يستطيعون النهوض به في هذا السبيل . وقائد الجميع في أداء هذا الواجب إمام العلماء شيخ الجامع الأزهر ، وإن له في إحياء الشريعة والدعوة إلى العمل بأحكامها مواقف يجمل بنا أن ندع الحكم عليها للتاريخ .

ويدعونا الإنصاف أن نشير إلى فضل علماء الأزهر وطلابه الذين اضطرتهم دواعي الحياة إلى الإقامة ببلدانهم ، وإن لكل منهم فضلا يقدره من انتفع به من أهالي بلده . ذلك مجهود العلماء في سبيل واجبه الديني . وإن للعلماء مجهودات صالحة في النواحي الثقافية والاجتماعية والوطنية أسنا بصدد الحديث عنها الآن . وأستطيع بعد هذا أن أقول إن العلماء يقومون بواجبه خير قيام ، ويقومون به في نجاح وتوفيق ، وقد بين مقدار هذا النجاح موازنة جهرة الشعب المصري في ثقافته الدينية بجمهرة سائر الشعوب الإسلامية ؛ عند ذلك يظهر فضل الأزهر وعلمائه على الشعب المصري . فقد حدثني ثقة أن العامة في كثير من الشعوب الإسلامية على جهل بأحكام الدين ، وفي حاجة ملحة إلى تصحيح العقائد والعبادات . على أن مافي بعضها من ثقافة دينية ورشاد ديني فانما هو قبس من نور الهداية الأزهرية .

ولقائل أن يقول : إذا كان العلماء يقومون بواجبه الديني في نجاح فما بالناس ترى جهرة الشعب لا تستهدي بالدين ولا تقيم حدوده ولا تنفذ أحكامه ، والدين غريب بينهم ومضيق فيهم ؟ وله أن يقول أيضا : أيكنتي من العلماء بالدعوة إلى الله بالبيان بعد أن قلم إنهم ورثة الأنبياء ، ومورثهم سيدنا محمد عليه السلام دعا باللسان وحمل السنان ، ومارس الضرب والطعان ، وساس وأفتى وحكم ، فكان قائدا ، وكان إماما ، وكان مفتيا ، وكان قاضيا ؟

لقائل أن يقول ذلك ، ولنا أن نقول : أما أن كثيرا من أفراد الشعب لا يعمل بدينه فذلك شيء لا يجادل فيه ، غير أن هذا ليس مما يؤخذ به العلماء ، بل ليس مما يدخل في طاقتهم ، لأن التعليم شيء والعمل به شيء آخر ، ورسالة العلماء أن يعلموا الدين فقط ، أما عمل الناس به فأمره إلى الله

« فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يتصاعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيماً ، قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » . ولم يهتد بمحمد عليه السلام وهو صاحب الدعوة ورسول البيان سائر الناس ، بل لم يهتد به بعض أعمامه وكثير من قومه ، وكان أحرص ما يكون على هدايتهم حتى عزاه الله بقوله : « فلعنك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » .

وأما أن محمداً عليه السلام دما وجاهداً وطاعناً وضارباً ولقى في سبيل دعوته من العنت والعناء ، فذلك حق لا ريب فيه ، غير أنا نقول إنه لا يجب على العلماء أن يدعوا الناس إلى الدين بالقول ، وقيموا عوجهم فيه بالقوة حتى يستجاب لهم ، وحتى يكونوا كمحمد عليه السلام ، لأن محمداً جمعت له السلطات جميعها ، ولكنها توزعت بعده وصار للسلطة التشريعية رجالها ، وللسلطة القضائية رجالها ، وللسلطة الإدارية رجالها ، وصار للدين رجاله ، وأصبحت وظيفة العالم الديني — كعالم ديني — أن يقول : قال الله في هذا الشأن كذا ، وروى عن محمد فيه كذا ، فإذا قال ذلك فقد أدى واجبه ، وأبرأ ذمته . أما أن يعمل الفرد أو تعمل الدولة بما يحدث القرآن أو يروى عن الرسول فليس من واجبه ، ولا هو مستول عنه ، ولا عليه أن يحمل السيف أو يرمى عن القوس من أجله ، وإذا حاول ذلك كان غافلاً عن وظيفته ، بل جاهلاً لمهمته ، وسندنا في ذلك أنتمنا الكرام : مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وأصحابهم رضي الله عنهم ، فلقد كانت وظائفهم بيان الأحكام في الحوادث إمامنصوصاً عليها في الكتاب والسنة أو مستنبطة منها ، ولم نقرأ في سيرهم أن أحدهم شهر سيفاً ، أو أشرع رمحاً في تنفيذ حكم أو تعطيل حد ، أو في أمر بمعروف أو نهى عن منكر ، ولم نقرأ في السير أيضاً أن أحداً من المسلمين نعى عليهم أو اتهمهم بالتقصير .

ويتصل بهذا الحديث ما يتهم به فريق من الناس بعض العلماء من عدم العمل بأحكام الدين والتفريط فيه ، واتخاذ هذه التهمة ذريعة إلى تفريطه في دينه ، وتضييعه إياه ، ونحن نقول لهؤلاء المسرفين على أنفسهم بالاتهام زوراً ما قال الله في الكاذبين : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً » . فالعلماء طائفة مهمها قيل فيها خير الطوائف تمسكاً بدينها ، ووقفاً عند أوامره ونواهيه ، ولو سلمنا هذه التهمة جدلاً ، وأن في بعض العلماء هنوات أفصلح تفريط العلماء في الاحتجاج لتفريط هؤلاء في دينهم والتحلل من أحكامه ، والله يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ويقول في أمثالهم : « يوم تقلب وجوههم في النار ، يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ، وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً ، ربنا آتتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا » .

ويتصل بهذا الحديث أيضا ما يؤاخذ به العلماء من اشتغالهم بالدرجات والوظائف وشئون العيش عامة ، وإنه لندهشنا هذه المؤاخذة ، ونضحك لها سخرية لا استحسانا ، لأننا نعلم وهم يعلمون أن العلماء بشر يأكلون ويشربون ، ويلبسون ويسكنون ، ويتزوجون وينسلون ، وليسوا قسيسين ولا رهبانا ، فلا رهبانية في الإسلام ، ويسرون في قافلة الحياة ، ويحكم عليهم العصر المادي ، وتحكم عليهم البيئة المادية ، وتحكم عليهم وظيقتهم بحسن المظهر ، والاحتفاظ بالكرامة ، ويتقضى ذلك كله التماس الموارد من وجوها ، فهل يلام العلماء إن هم التمسوا ذلك في غيرهم ولا تهالك ، وفي المحيط الضيق الذي قدر لهم ليسدوا به مطالب العيش وضرورات الحياة ؟ فإن قيل وأين زهد العلماء ؟ قلنا وأين أخلاق الناس ؟ لقد كان الناس يقدرون الزهد ويقدررون العلم ويقدررون الفضيلة إلى حد ما ، فأصبح تقديرهم ماديًا صرفًا لا يحترمون إلا المادة ، ولا يكرمون إلا صاحبها ، وقيمة الشخص عندهم مافي جيبه من نقود لا مافي نفسه من فضائل . إن من يميل العلماء بالتماس الرزق جاهل بدينه مناقض لنفسه ، فهو إذ يطالب العلماء بالزهادة والإعراض عن المادة يطالبهم بحسن المظهر وحفظ الكرامة ، وليس هناك تناقض أبعد من هذا ، والإسلام حث على التماس الرزق كما حث على الصلاة والصوم . وبعد ، فقد صار الحديث في هذا الموضوع معادا مملولا ، ولم يعد السلاح الذي يتهيبه العلماء ويشغلون أنفسهم به ، وهم مطمئنون مرتاحو الضمائر إلى أنهم قد أدوا واجبهم وأبلغوا رسالتهم ، فلا يضيرهم أن يبخس حقهم جاحد ، أو ينقص قدرهم لثيم ، ورحم الله حسانا إذ يقول :

لا أبالي أنب بالحنن تيس أم الحاني بظهر غيب لثيم

وخير لهؤلاء المتبطلين الذين يزجون الفراغ بالحديث عن العلماء ويؤمنهم بالنهم أن يقلعوا عنه ، وأن يلتمسوا حديثا غيره محمد طاقته ، وترج تجارتهم . وخير الناس من اشتغل بعيبه عن عيوب الناس ؟

ابو الوفا الرازي

وصية حكيم لابنه

أوصى حكيم ابنه فقال له :

يا بني إني موصيك بوصية فإن لم تحفظ وصيتي عني ، لم تحفظها من غيري : اتق الله ما استطعت ، وإن قدرت أن تكون اليوم خيرا منك أمس ، وغدا خيرا منك اليوم ، فافعل ؛ وإياك والطمع فإنه فقر حاضر ، وعليك باليأس ، وإنك لن تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه ، وإياك وما يمتد منه .

ذكرى المولد الشريف

ألقيت في احتفال الأزهر

كُتبتِ غافية المشاعر فاسجى
شعري ! وما شعري إذا ناديت
قلبي ! وهل قلبي إذا ناديت
مُتَهافت رِضو السقام ، وموجع

هتف البشير بيوم مولد أحـ
وانساب يرح في أزاهر روضة
نشوان ، يدعو خير من وطئ الثرى
فأجاب يهتف خافق في أضلعي
أزرت بأثمار الربيع الممرع
وأبر من صلي ، وأكرم من دعي

هذا البشير ، هدى الرءاء بدينه
ملكوا الحياة فصرفتوها أمة مدأ
تحسوا الضميف ، فعز في أوطانه
وتواضعوا في مجدهم ، فتهاقت
أعلى الممالك ما أقام بُنـائـه
وأجل مجـد ما بنته فضيلة

وهو النذير ، طغى الضلال فهده
في عصبة بدرية عـلوية
يتراحمون على الجلاد كأنهم
إخلاص أجناد ، وعزة سادة
هزوا الممالك هـزة دقاعة
طووا الموائى الفيح وهي مهالك
من لم يدن للهدى ، دان قصيـه

ذكراك — ياخير الخلائق — بلسم
يشنى جراحات الحب المولع

لما ذكرتك والخطوب حوالك طرب الفؤاد ، وغنت الدنيا معي
نفحات قدس ، في جحيم مخاوف وشمع نور في ظلام مفزع
بجـلالك الاسمي نلوذ ونحتمي وبسيفك الامضى نصول وندعى
خـلـدت بالاسـلام أمنع معقل فليعتصم بالدين كلُّ مُروّع
كلية اللغة العربية عبد الجواد رمضان

ذكرى المولد النبوى الشريف

ألقيت في احتفال الأزهر

أيها الصائلون في كل واد أتمنوا الأرض من أليم الجلاد
ودعوها تر الضياء قليلا فهي تردى في ظلمة وسواد
وانثروا فوقها ثياب عروس إنها أبغضت ثياب الحداد
ودعوا المجد لا تقولوا أردنا ليس في السيف رفعة الجلاد
قد ملائم رحابهم بدماء زاكيات كصبيات الغوادي
وبعثتم من النفوس خيارى فاستضاءت بظلمة الاحقاد
ليس في الأرض غير جوع وحرص وهموم قتالة وفساد
ساهد يملأ الليالى نحيبا وخلى لم يدر طعم الشهاد
قد أضأتم للمجد كل فتيل غير نور السلام وهو الهادي
إن أردتم على الزمان خلودا فاستنبروا بضوء تلك البوادي
واسألوا « مكة » الكريمة ماذا أنجبت للزمان من أعجاد
شع نور في ليلى فهداها وأفاض السنا على كل واد
ودها الفرس من هدى الحق رعب أطقاً النار بعد طول اتقاد
والمقادير غيبت ماء « ساوى » لا تسلى عن حيرة الورد
تلك آيات مولد الرشد ذاعت تنذر الأرض باقتراب الرشاد

ما لتلك الجبال تنفج طيبا أبحس الجناد طعم الشهاد ؟
ولتلك الرمال تألق نورا هل أحست بمقبل الاسعاد ؟
وكان الزمان أعطى عقلا فهو يهفو لساعة الميلاد

لما ذكرتك والخطوب حوالك طرب الفؤاد ، وغنّت الدنيا معي
نفحات قدس ، في جحيم مخاوف وشمع نور في ظلام مفزع
بجـلالك الاسمي نلوذ ونحتمي وبسيفك الامضى نصول وندعى
خَلَدتْ بالاسـلام أمنع معقل فليعتصم بالدين كلُّ مُرَوِّع
كلية اللغة العربية عبد الجواد رمضان

ذكرى المولد النبوى الشريف

ألقيت في احتفال الأزهر

أيها الصائلون في كل واد أتمنوا الأرض من أليم الجلاد
ودعوها تر الضياء قليلا فهي تَرَدَى في ظلمة وسواد
وانثروا فوقها ثياب عروس إنها أبغضت ثياب الحداد
ودعوا المجد لا تقولوا أردنا ليس في السيف رفعة الجلاد
قد ملائم رحابها بدماء زاكيات كصبيات الغوادي
وبعثتم من النفوس خيارى فاستضاءت بظلمة الاحقاد
ليس في الأرض غير جوع وحرص وهموم قتالة وفساد
ساهد يملأ الليالى نحيبا وخلى لم يدر طعم الشهاد
قد أضأتم للمجد كل فتيل غير نور السلام وهو الهادي
إن أردتم على الزمان خلودا فاستنبروا بضوء تلك البوادي
واسألوا « مكة » الكريمة ماذا أنجبت للزمان من أعجاد
شع نور في ليلاها فهداها وأفاض السنا على كل واد
ودها الفرس من هدى الحق رعب أطقاً النار بعد طول اتقاد
والمقادير غيبت ماء « ساوى » لا تسلى عن حيرة الورد
تلك آيات مولد الرشد ذاعت تنذر الأرض باقتراب الرشاد

ما لتلك الجبال تنفج طيبا أبحس الجناد طعم الشهاد ؟
ولتلك الرمال تألق نورا هل أحست بمقبل الاسعاد ؟
وكان الزمان أعطى عقلا فهو يهفو لساعة الميلاد

وكان الأيام تنهب الخط ————— و لتعطي بلم خير الايادي
وكان الحصاة من بلديته ————— تفضل الدر من جميع البلاد

ما أضل الانسان أغرب حتى ————— للأضاليل بات ملقى القياد
كل شيء يحزن للماء عذبا ————— غير نفس الغوى وهو الصادي

ملت البيد من فساد وبني ————— وضلال وفرقة وتماد
لو أطاقت صاؤها لتشكت ————— ولمالت رواسخ الأطواد
فينجاد تموج فيها الخوصم ————— ات وتعدو على ربها العوادي
وهاد في جوفها الظلم والش ————— ر عنيفا ياويلها من وهاد
فأتم ————— ا عناية الله تمحو
خفقت من جباههم وأدالت ————— دولة الظلم والهوى والعناد
حطمت كبرم على صخرات ————— عبدوها من دون رب العباد
جمعهم كالعقد نظما وكانوا ————— كرمال الصحراء راحت بداد

يانبي الهدى إليك شكاتي ————— من بنى قومنا الصحاب الأمادي
زعموا ضلة إليك اشتياقا ————— وهم في الحياة خرط القناد
رب قلب إخاله «نار موسى» ————— فاذا جشئه فشبه الرماد
رب قلب إخاله «روح عيسى» ————— فاذا مستنى فصلا الجاد
رب قلب إخال فيه شعاعا ————— من ضياء الحقيقة الوقاد
فاذا فيه ألف ليل مخيف ————— يتراهي في لجة من مداد

ألف الناس ظلم من لم يسمهم ————— خطة البغي أو هوان الإياد
والبرايا في حلبة الظلم والش ————— ر وساح الفساد خيل طراد

يانبي الهدى إليك شكاتي ————— من أفاع بميدة الآماد
نفقت في العقول منها مموما ————— وارفضاها الأجداد للاخفاد
بدع غبرت على الرائد الح ————— ق فندة الهدى على الرواد
من تراه يرد للناس مجدا ————— ضيعوه من طارف وتلاد ؟
لست أدري سوى الجهاد وإن خا ————— ف ضعاف النفوس عبء الجهاد

كلية اللغة العربية ————— على محمد مرس

بَابُ الْأَسْتِثْنَاءِ وَالْفَتْاوَى

وصية لم تردون ولم تتم الشهادة عليها

ورد إلى حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر من حضرات المحترمين الأفاضل قضاة محكمة الاستئناف بالبحرين كتاب قال فيه مرسوله بعد الديباجة : « لنا الشرف العظيم بأن نرسل إلى فضيلتكم قضية محكمة البحرين المدلية رقم ١٠٠ لسنة ١٣٥٩ وعدد أوراقها ٥٣ لأجل الاستفتاء من فضيلتكم في صحة ما ادعاه المدعى أو بطلانه ، وإعطائنا النص الشرعي الحقيقي في هذه المسألة على مذهب الإمام مالك رضى الله عنه .

أما موضوع الدعوى فهو أن شخصاً يدعى محمد بن راشد المحرى قدم دعوى فريدة من نوعها في محكمة البحرين المدلية ضد ورنه جده المغفور له صاحب الفضيلة الشيخ قاسم بن مهزح قاضي البحرين سابقاً مدعياً أن جده المذكور قد أوصى له بسهم واحد كأحد أولاده في الإرث بعد مماته ، إلا أن جده لم يدون ذلك في وصية شرعية ، بل إن المدعى استند في ادعائه على شهادة شهود طلب هو منهم أن يخاطبوا جده في الإحسان إليه فقط ، كما سنجدون ذلك مفصلاً في محاضر المحكمة الشرعية بالبحرين الموجودة في ملف هذه القضية ، وهؤلاء الشهود لم يحضروا لدى جده في آن واحد بل في أوقات مختلفة ، وكل على حدة ، وتختلف شهادته عن الآخر . وبما أن هذه القضية شرعية أمثالها المحكمة المدلية إلى محكمة الشرع بالبحرين للبت فيها ، وهذه الأخيرة بدورها قد أصدرت حكماً نهائياً فيها ، إلا أن وكيل الورثة المدعى عليهم محمد كمال المهزح رفض الرضوخ إلى ذلك الحكم ، واستأنف القضية إلى محكمة الاستئناف ، وبعد الفحص والتدقيق في تقارير المحكمة الشرعية من لدن محكمة الاستئناف التي لم تقتنع بصحة حكم المحكمة الشرعية ، إلا أنها في نفس الوقت وجدت نفسها حائرة في نفي الحكم الشرعي نفياً باتاً نظراً لالتباس القضية وتعقدها ، ولهذا ارتأت إرسال هذه القضية إلى فضيلتكم للنظر فيها وإصدار حكمكم الشرعي في هذا الخصوص . ونجدون برفقة هذا تقارير المحكمة المدلية والشرعية وملاحظات محكمة الاستئناف .

وختاماً جزاكم الله عنا خيراً ، وحفظكم ذخراً وملاذاً للاسلام ، ومصدراً لكل خير ، ومفتاحاً لكل بركة . والسلام عليكم .

قضاة محكمة الاستئناف بالبحرين

(امضاءات)

وقد حول حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر أوراق القضية كما جاءت من المحكمة المذكورة إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر المشكلة برياستي أنا محمد عبد اللطيف الفحام وكيل الجامع الأزهر لفحصها وإصدار الفتوى فيها .

وقد اطلمت لجنة الفتوى على جميع الأوراق التي في ملف القضية وأملت بجميع أبوابها ، واستقصت أقوال الشهود وأقوال الخصمين في جرحهم وتعديلهم ، فتبين لها أن شهادة الشهود حسب المبين في الأوراق لا تكفي لإثبات دعوى الوصية المذكورة للأسباب الآتية :

أولاً — أن شهادة الحاج يوسف أحمد كانو المدونة في محضر ٢١ صفر سنة ١٣٦٠ بالصفحة نمرة ١٠ من محضر القضية غير جازمة في موضوعين : الأول في قوله حكاية عن الشيخ قاسم : « وما يدريك أنني قررت له أو أقرر له » ؛ والثاني في قوله في هذه الشهادة نفسها : « سبها أوسهمين » . وقد أزال الشاهد الأول باقتصاره على كلمة : قررت أمام المحكمة ، ومذهب الإمام مالك أن إزالة الشاهد شك أمام القاضي مقبولة بشرط أن يكون مبرزاً في العدالة أى فائتاً فيها ، ولم يثبت من أوراق القضية أنه على هذه الصفة . وقول المحكمة في هذا الشاهد في محضر ٦ جمادى الثانية سنة ١٣٦٠ إنه رجل ثقة ، لا يكفي في إثبات أنه مبرز في العدالة . وأما الشك الثاني فقد أزاله الشاهد بمقتضى كتاب منسوب إليه ذكر فيه أن الشيخ قاسم قرر لمحمد بن راشد سهم ولد . ومذهب الإمام مالك أن الشهادة لا تقبل بكتاب إلا إذا كان للشاهد عذر في تغيبه عن حضور القضية أمام القاضي ، ولم يثبت من الأوراق عذره عن الحضور .

وقد جاء في كلام المحكمة في محضر ٦ جمادى الثانية سنة ١٣٦٠ ما يشير إلى أن ليوسف أحمد كانو المذكور شهادة غير هذه ، وهي شهادة لم تدون المحكمة نصها في الأوراق الموجودة ، فلا تستطيع لجنة الفتوى أن تبت في أمرها ، ولا أن توافق المحكمة على أنها شهادة صحيحة جازمة ، لأن اللجنة لم تطلع على نصها .

ثانياً — أن شهادة سالمان كمال لم تتم لأن المحكمة اعتمدت في تعديله وإثبات أنه مبرز في العدالة على كتابة مقدمة من عدة أشخاص لم يثبت أن لهم عذراً مقبولاً في عدم حضورهم إلى المحكمة . والشهادة الكتابية لا يعول عليها كما تقدم .

ثالثاً — صالح النعماني لا يصح التعويل على شهادته ، لأنه لم يعدل بالطريق الشرعي ، وذكرت المحكمة أنها أعرضت عن شهادته لكثرة الكلام فيه .

رابعاً — أن شهادة عبد الرحمن بن عبد الله السندی المدونة في محضر ٥ ربيع الأول سنة ١٣٦٠ ورقة نمرة ١٣ لا تثبت الموضوع المتنازع فيه وهو عقد وصية صادر من الشيخ قاسم الميزع لمحمد بن راشد ، لأنه ليس فيها نص صريح ولا إشارة إلى هذه الوصية . أما ما قاله المحكمة بشأن عبد الرحمن السندی من أنه شهد طبق شهادة سالمان كمال فلا توافق لجنة

الفتوى عليه ، وبمقارنة شهادته بشهادة سالماني بحال يتبين الفرق بين الشهادتين ؛ فشهادة سالماني قد صرح فيها بأن الشيخ قاسم أشهد على نفسه بأن محمد بن راشد في الإرث كواحد من أولاده ، أما شهادة الشيخ عبد الرحمن السندى فقد خلت من هذه الجملة مما جعلها لا تثبت شيئاً يتعلق بالوصية .

خامساً — أن الشيخ عبد الله بن إبراهيم الصحاف لم يعدل ، فشهادته لم تتم .

سادساً — أن البطاقة التي قدمت للمحكمة والتي قالت عنها إنها منسوبة لزوجتي الشيخ قاسم ، وهما حصّة وماهية ، لاقيمة لها لعدم ثبوت صدورهما منهما ، فلا تعتبر إقراراً بالنسبة لغيرهما .

وبناء على ذلك ترى لجنة الفتوى بالأزهر أن دعوى الشيخ محمد بن راشد المحررى أن جده الشيخ قاسم المهزوع أوصى له بسهم في تركته كأحد أولاده لم تثبت من الأوراق التي قدمت إلى اللجنة ، والله أعلم ؟

السفر والغطس في الماء في رمضان

وجهت جريدة البحرين الغراء في عددها رقم ١٤٠ الصادر في ١٦ شوال سنة ١٣٦٠ إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر استفتاء ملخصه :

« إن موسم الغوص على اللؤلؤ سيستغرق شهر رمضان هذا العام ، وسيظل كذلك حوالي عشرين عاماً آخر فيما بعد ، وإن العمال يتخرجون من السفر إلى المغاصات في رمضان ظناً منهم أن السفر في هذا الشهر تعرض منهم للإفطار ، وأنه معصية لا يجوز التعرض لها ، وأن الغائص لا مفر له من ملابس الماء . ويطلب المستفتى الجواب عن الأمرين الآتيين :

الأول — هل يجوز للناس السفر إلى الغوص أثناء رمضان مع الإفطار وقضاء الأيام التي يفطرونها من أيام آخر ؟

الثاني — هل الغطس في الماء موجب للإفطار ؟

وقد حول حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر هذا الاستفتاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر للإجابة عليه . وقد اطّلت اللجنة على عدد الجريدة ، وتجيّب بما يأتي :

قال الله تعالى : « وهو الذي سخر البحر لنا أكلا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وقال جل شأنه : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

الفتوى عليه ، وبمقارنة شهادته بشهادة سالماني بحال يتبين الفرق بين الشهادتين ؛ فشهادة سالماني قد صرح فيها بأن الشيخ قاسم أشهد على نفسه بأن محمد بن راشد في الإرث كواحد من أولاده ، أما شهادة الشيخ عبد الرحمن السندى فقد خلت من هذه الجملة مما جعلها لا تثبت شيئاً يتعلق بالوصية .

خامساً — أن الشيخ عبد الله بن إبراهيم الصحاف لم يعدل ، فشهادته لم تتم .

سادساً — أن البطاقة التي قدمت للمحكمة والتي قالت عنها إنها منسوبة لزوجتي الشيخ قاسم ، وهما حصّة وماهية ، لاقيمة لها لعدم ثبوت صدورهما منهما ، فلا تعتبر إقراراً بالنسبة لغيرهما .

وبناء على ذلك ترى لجنة الفتوى بالأزهر أن دعوى الشيخ محمد بن راشد المحررى أن جده الشيخ قاسم المهزوع أوصى له بسهم في تركته كأحد أولاده لم تثبت من الأوراق التي قدمت إلى اللجنة ، والله أعلم ؟

السفر والغطس في الماء في رمضان

وجهت جريدة البحرين الغراء في عددها رقم ١٤٠ الصادر في ١٦ شوال سنة ١٣٦٠ إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر استفتاء ملخصه :

« إن موسم الغوص على اللؤلؤ سيستغرق شهر رمضان هذا العام ، وسيظل كذلك حوالي عشرين عاماً آخر فيما بعد ، وإن العمال يتخرجون من السفر إلى المغاصات في رمضان ظناً منهم أن السفر في هذا الشهر تعرض منهم للإفطار ، وأنه معصية لا يجوز التعرض لها ، وأن الغائص لا مفر له من ملابس الماء . ويطلب المستفتى الجواب عن الأمرين الآتيين :

الأول — هل يجوز للناس السفر إلى الغوص أثناء رمضان مع الإفطار وقضاء الأيام التي يفطرونها من أيام آخر ؟

الثاني — هل الغطس في الماء موجب للإفطار ؟

وقد حول حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر هذا الاستفتاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر للإجابة عليه . وقد اطّلت اللجنة على عدد الجريدة ، وتجيّب بما يأتي :

قال الله تعالى : « وهو الذي سخر البحر لنا نأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وقال جل شأنه : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

بهاتين الآيتين ونحوهما حث الله عباده على الانتفاع بما سخر لهم في البر والبحر ، وعلى مواصلة السعى في تحصيل الارزاق وتنمير ما خلق الله لهم من شيء .

وبإزاء هذا كلف الله عباده أن يقوموا بما فرضه عليهم من عبادات تهذيباً لنفوسهم ، وضبطاً لشهواتهم ، وتقريباً لهم من حظيرة قدسه . فرض عليهم الصلاة وطلب منهم الكف عما ينافيها في وقت أدائها ، لأن طبيعتها تأبى الاشتغال بغيرها ، ولأنها لا تستنفد من الإنسان وقتاً طويلاً قد يؤثر عليه في تحصيل رزقه ، والنظر في تدبير أمور معاشه : « يأيتها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » .

وفرض عليهم الصوم شهراً كاملاً من كل عام ، ومن شأن هذا الزمن الممتد المتصل أن يؤثر في جهود الإنسان المعاشية لو انقطع للصوم فيه دون أن يزاول مالا بد منه لتحصيل رزقه ، لذلك لم ينع في الصيام ما منع في الصلاة من الاشتغال بالأعمال والسعى في سبيل الرزق ؛ ولما كان ذلك قد يستدعى أسفاراً تجتمع مشقاتها إلى مشقة الصوم والعمل ، رخص الله رخصة بعباده للمسافرين في الإفطار على أن يصوموا عدة ما أفطروا من أيام أخر ؛ قال تعالى : « فنشهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » .

والسفر يشمل سفر الطاعة كالحج والجهاد ، والسفر المباح كالسفر للتجارة والكسب ونحوهما مما تعود منافعه إلى المرء في نفسه أو ولده أو وطنه ؛ لم يخالف في ذلك أحد من الفقهاء ، بل اتفقوا عليه وأخذوا منه أن المرء أن يسافر في أثناء رمضان وأن يترخص بالفطر في سفره ، وإنما اختلفوا في أي الأمرين أفصل للمسافر : الصوم أم الفطر ؟ والخلاف في الأفضلية لا يؤثر في أصل المشروعية .

يتبين من هذا :

١ — أن السفر لاكتساب العيش بالغوص أو غيره مما يباح ، جائز اتفاقاً في أيام رمضان كما هو جائز في غيره من أيام السنة ؛

٢ — وأن للمسافر في أثناء رمضان أن يترخص بالفطر ثم يقضى ما أفطر إذا أدرك أياماً أخر ، أما من مات دون أن يدرك أياماً أخر فلا إثم عليه .

والماء الذي يصل إلى الجسم من طريق المسام التي في الجلد لا يفسد الصوم باجماع الفقهاء ، وإنما يفسده ما يصل إلى الجوف من المنافذ المعتادة . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

حول السيرة المحمدية (١)

لصاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد الله الجهنى

كنت أظن أن ما كتبته تحت هذا العنوان هو فصل الخطاب ، ولكن خاب ظنى ، فإن الأستاذ مدير هذه المجلة أبى إلا أن يعقب عليه ، فأجأتني الى معاودة الكتابة .

(١) قبل المناقشة في الموضوع أسجل على الأستاذ أنه رجع الى الحق ، فبعد أن أنكر إسلام النجاشي وكلمات قائلها هرقل ورواها البخاري ، رجع فقال : « أما أن كثيرا من أبحارهم وقساوستهم كانوا يعرفون أنه نبي فما لا شك فيه » راجع نص كلامه في صفحة ٥٣٥ و ٥٣٧ بعدد شهر رمضان ، وإذن فقد اتفقنا ، فانا إذا قلنا إن أهل الكتاب كانوا على علم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم فانا بالطبع لا نريد جميع الأمة ، ولكن أهل العلم منهم وفي مقدمتهم ملوكهم .

(٢) بعد ذلك انتقل الأستاذ الى بحث شكلي وهو هل علم هؤلاء القوم كان بواسطة البشارات أو بقرائن وأحوال أخرى ، ومال الى أنها كانت بغير تلك البشارات ، واستأنس في ذلك برأى الفخر الرازي . ونحن نؤكد بأن إسلامهم كان من تلك البشارات ، فإن قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل » وقوله : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، الآية » يفيد يقينا أن معرفتهم به كانت سابقة على مجيئه . وإذا كان كذلك لم تكن معرفتهم بالقرائن والأحوال . فآية قيمة لخلاف الامام الرازي ؟

(٣) كنت استدلت بقوله تعالى : « ولتجدن أقربهم مودة ، الآية » على قرب مسيحي ذلك الزمان من الاسلام لأنهم كانوا لا يعتقدون تمام دياتهم ، وأنهم كانوا ينتظرون نبيا بعد عيسى ؛ فرد على الأستاذ بأن هذه الآية نزلت في حق جماعة كانوا آمنوا من قبل . فرددت عليه بأن هذا يشطر الآية نصفين وفي ذلك إخلال بجزالة النظم ، فرد على الأستاذ بأن هذه الآية نزلت في قوم من النصارى كانوا أسلموا ، واستأنس في ذلك بقول الامام الرازي . وبذلك يكون قد عدل عن رأيه الاول وسلم معنا بأن الآية بجملتها في حق فريق من النصارى .

(٤) وقال الأستاذ عني إني أحسنت الظن بهرقل حتى جعلته داعية للاسلام . وأنا أقول بأنني لم أحسن به الظن بل صرحت بأنه أثر الضلال على الهدى ، وكل ما قلته مروى في البخاري . (٥) وقال الأستاذ في عدد شوال إنه يتحدى كل قائل بهذا أن يثبته من كتب النصرانية ، وقد سبق مني ما فيه الكفاية في ذلك من إنجيل يوحنا ، فليرجع اليه .

(١) أرسل الى فضيلة الأستاذ صاحب هذه المقالة بمقال يعقب به على ما سبق لي مناقشته فيه ، فاضطرت لتلخيصه مع المحافظة على جميع ما يريد الإفضاء به لضيق المجال .

(٦) وكنت ذكرت آيتين من إنجيل يوحنا تدلان على بعث نبي بعد عيسى ، فرد على الأستاذ بأن النصارى فهموا منه أنه سيرسل لهم روح القدس ؛ فرددت عليه بثلاثة أوجه .

(أولها) لو صح ذلك للزم عليه أن يكون المسيح جاءهم بالتبليغ ، لأنهم في أول عهدهم كانوا قد تلقوا دينهم منه . (ثانيها) أنه استدلل على صحة قوله بما كتبه (لاروس) في دائرة المعارف الكبرى ، ولاروس هذا ليس كل النصارى ، وعبارته لا وجه فيها على ما ادعاه . (ثالثها) قال الأستاذ إن المعزى هو أحد الأقاليم الثلاثة وقد أرسل لهم فملا وتولاهم . ونحن نقول : إذا كان هو رجلا فتى أرسل وأين أرسل وما نسبه وأين شريعته ؟ وإن كان قوة فكيف بكنت العالم كما يقول الانجيل وأنت بشرع آدم وأكمل من شرع عيسى ؟

(٧) وقال الأستاذ : أما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بشر به في التوراة والانجيل فصحيح ، ولكن ليس المعول على إيماننا ونحن ولكن المعول على إيمانهم هم . وفي هذا الكلام مغالطة يراد بها إظهار دعوانا بمظهر الدعوى الباطلة ، والحقيقة أننا قلنا إن قوله تعالى : « الذي يجدونه مكتوبا عندهم » يدل على علمهم لا علمنا .

وقال الأستاذ في صفحة (٥٩٨) إنى لم أكذب البخارى فيما نقله عن أبى سفيان وإنما كذبت ما زيد عليه مما روى عن ابن الناطور . ونحن نحيل القارىء الى تعليق مدير المجلة نفسه (صفحة ٣٩٠) ومنه يتبين أن ما كذبه هو من صميم رواية أبى سفيان .

(٩) واختلفت أنا والأستاذ في مدح سرعة التصديق ودمه ، وأنا أقول إنها صفة مدح لأنهم كانوا على علم بأمره قبل ظهور دعوته ؛ وقوله تعالى : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » فهل يأمره بسؤالهم إلا لأنهم يعلمونه ؟

(١٠) وفي صفحة (٦٠٠) عاد الأستاذ لإسلام النجاشى فرجح أن الذى أسلم غير الذى أرسل اليه كتاب الدعوة مستندا في ذلك الى رواية مسلم ، والى استبعاد مجاهدة النجاشى قومه بالاسلام وهم شديدو الحرص على دينهم ، فكيف جوز أن يسلم نجاشى آخر ويصارع قومه باسلامه ؟ ورواية الامام مسلم أن الصلاة كانت على غير من أرسلت اليه الدعوة لا تمنع أن يكون الذى أرسلت اليه قد أسلم أيضا .

وأما كون كتاب النجاشى ركيك العبارة فهذا يدل على صحته .

(١١) أما قول الأستاذ إن إسلام ابن الناطور لا يكفي في جعله أهلا للأخذ عنه إلا إذا ثبتت عدالته ، فنحن نقول إن الذى روى عنه هو الزهرى إمام المحدثين ، وقد رضى هذه الرواية البخارى مع جلالة قدره وتشده في الرواية ، فخير بنا أن نترك هؤلاء العظماء ما وقفوا حياتهم لأجله وهم رجال الفن وأدرى بأهل زمنهم .

(مجلة الأزهر) ننشر هذا ولا نعلق عليه مكتفين بتعليقاتنا السابقة ، فليرجع إليها من شاء .

المثل السائر

لضياء الدين ابن الاثير

- ٢ -

ولقد أدت به العناية بالناحية اللفظية الى أن ذكر تحت عنوان (النوع السادس في اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها) من ص ١١٢ الى ١١٦ أن هذا النوع من الصناعة اللفظية بمنزلة عليّة ومكانة شريفة ، الى أن يقول : وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها وسيأتي ذكرها هنا ، ويذكر تحت هذا العنوان عدة أقسام وأمثلة ، ومن أمثلته في ذلك كلمة الأخدع إذ يقول : « فإنها قد وردت في بيتين من الشعر وهي في أحدهما حسنة رائقة وفي الآخر مستقلة كريهة كقول ابن الصمة :

تلفت نحو الحى حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليّنا وأخذنا
وكقول أبي تمام :

يادهر قوم من أخدعك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

ألا ترى أنه قد وجد لهذه اللفظة في بيت أبي تمام من النقل على السمع والكرهية في النفس أضعاف ما وجد لها في بيت ابن الصمة من الروح والخفة والإيناس والبهجة ؟ وليس سبب ذلك إلا أنها جاءت موحدة في أحدهما مثناة في الآخر ، وكانت حسنة في حالة الأفراد مستكرهة في حالة التثنية ، وإلا فاللفظة واحدة وإنما اختلاف صيغتها فعل بها ما ترى ، وهكذا يفرق بين الفعل الماضي والمضارع والأمر وبين المفرد ومثناه وجمعه ، فيقول مثلاً في أكوأب إنها فصيحة وإن الكوب ليس بفصيح ، وإن رجاً ليس بحسن وجمعه وهو أرجاء حسن فصيح ، ولذلك ذكر القرآن الكأس بدل الكوب ، وذكر الأكوأب والأرجاء ولم يذكر الرجا والكوب . وقد تأثر بهذا البحث وتوسع فيه المرحوم مصطفى صادق الرافعي . وقد ينقض هذا الرأي بقول عبد القاهر بعد الكلام في أن مرجع الفصاحة والبلاغة الى الاتساق المجيب فيما بين الكلم ص ٣٨ دلائل الإعجاز » فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مفردة وكلم مجردة ، وأن الألفاظ تثبت لها التفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ . ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ، كلفظة الأخدع في البيتين السابقين ، وبيت البحترى :

وإني وإن بلغتني شرف الغنى وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فإن لها في بيت ابن الصمة والبحترى ما لا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام :
يأدهر قوم من أخدميك

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيم والتكدير أضاف ما وجدت هناك من الروح والخفة واللين والبهجة . وما أشبه لفظيهما في هذه الموازنة ١١

ويمكن ترجيح رأى عبد القاهر بما مثل به بعد ذلك من أن لفظة الشيء أنت مقبولة حسنة في موضع وضعه وضعه مستكره في موضع وهي كلمة مفردة . إلا أن هذا النقد في مثال من أمثلة ابن الأثير لا يذهب بقيمة هذا الباب الذي ابتكره ابتكاراً ، فإنه قد ذكر فيه من أمثلة اتفاق صيغ الألفاظ واختلافها مع ذهاب الحسن بذلك أو القبح ما يجب أن يسلم له ويتقبل منه .

وإنه لمن أعظم الأدلة على ارتباط البلاغة بالألفاظ عند المؤلف ما ذكره في ص ١٩٠ تحت عنوان (النوع الثاني عشر في قوة اللفظ لقوة المعنى) إذ يسرد مسائل وأمثلة عدها هو من البيان ، وذكر أن ابن جنى ذكرها في الخصائص ، ولكنه لم يوردها كما أو ردها المؤلف ولا نبه على ما نبه عليه من النكات ، ثم احتكم إلى المقارنة بينه وبين ابن جنى في هذا الكلام . وبالنظر إلى ما ذكره في هذا الفصل نجد أنه كان صرفياً صرفاً ، وأنه لا يبحث في شيء يمكن أن يكون بياناً تتفاضل فيه الناس ، فهو يذكر صيغ المبالغة وما فيها من زيادة اللفظ لزيادة المعنى ، ويقارن بين خشن واخشوشن ، وقدر واقتدر إلى آخر ما هنالك ، ثم يتخبط في آخر الفصل إذ يرى أن اللفظة إذا لم تزد على مثلها فلن يزيد معناها ، ويوازن بين عالم وعليم فيرى أنه ليس لعليم فضل زيادة في معناها لتساوى لفظها ولفظ عالم ، بل إن عالماً هو الأولى بزيادة المعنى خلافاً لجمهور العلماء ذاكرة أن الفرق أتى من مأخذيهما ، إذ أن عالماً من علم القاصر وعالماً من علم المتعدى ، وقد رأى خطأ أن القاصر أقصر معنى من المتعدى .

أما الكلام في الجزالة والركة اللفظية فقد أفاض فيه ابتداء من ص ٦٧ وجعل جزالة اللفظ تابعة لجزالة المعنى ورقته لرقته ، ويعود إلى ذلك في ص ١٤٠ عند شرح البيتين :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومستح بالاركان من هو ما سح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

مفندا رأى من يرى أنه لفظ جزل ليس تحته طائل معنى بأن هذه الجزالة إنما أتت اللفظ تبعاً للمعنى ، ثم يفيض في بيان هذا المعنى الجزل ويرى أن العرب إنما تحسن ألفاظها وتزخرها عناية منها بالمعاني التي تحتها ، وما الألفاظ إلا خدم للمعاني .

ومن الأدلة على أن الناحية اللفظية قد ملكت ناصية فكره ، وذهبت بالكثير من عنايته ، دفاعه في ص ٨ و ٩ عن رأى القائل إن وضع اللغة لأمرين : البيان والتحسين ، وإن المشترك

لم تضعه القبائل المختلفة ، ولكنه وضع ليتأتى لأرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر ذلك المقوم البلاغى وهو التجنيس .

صلة هذا الكتاب بكتابتى عبد القاهر وبالمفتاح للسكاكى :

ولعل من أهم مايعنى به فى دراسة هذا الكتاب بيان صلته بكتابتى عبد القاهر وبالمفتاح للسكاكى ؛ أما صلته بالسكاكى فلا دليل عليها ، لا من تقسيم الكتاب ولا من روحه ونهجه فى البحث ، لا سيما أن السكاكى توفى فى سنة ٦٢٦ وابن الأثير فى سنة ٦٣٧ أى أنه كان معاصرا له ولكن مع اختلاف الديار وتذاتى الأمصار . وما مثل حيلولة هذا التناثى بينهما إلا كتل الشيخ عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجى الحلبى ، فإن الأول متوفى سنة ٤٧١ والثانى سنة ٤٦٦ وبين كتبهما اختلاف بعيد تبعا لاختلاف الموطن وتغاير البيئة .

والذى يقف أمامه الباحث حائراً دهشاً هو صلة هذا الكتاب بكتابتى عبد القاهر ؛ فإننا نجد عند الكلام فى الإيجاز بالحذف يبدأ بما بدأ به عبد القاهر باب الحذف ، بل يسرد كثيراً من كلامه فى أثناء البحث بصورة لا يمكن أن تكون من توارد الخواطر ووقوع الحافر على الحافر — كما يقال — فيقول فى ص ١٩٨ : إنه — أى الإيجاز بالحذف — عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجذك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون مبينا إذا لم تبين ؛ وهذه جملة تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر اهـ . ويراجع دلائل الإيجاز ص ١١١ .

ويقول فى ص ١٢٤ فى حذف المفعول به كثيراً من جمل عبد القاهر بأساليبه ومثله ، فيقول فى بيان الحذف فى الآية الكريمة « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون — الآية » : قد حذف المفعول به فى أربعة أماكن ، إذ المعنى وجد أمة من الناس يسقون مواشيهم ، وامرأتين تذودان مواشيها ، وقالنا لانسق مواشينا ، فسق لهما مواشيها ، لأن الغرض أن يعلم أنه كان من الناس سقى ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرءاء ؛ فأما كون المسقى إبلا أو غنما أو غير ذلك فنخرج عن الغرض اهـ ويراجع الدلائل ص ١٢٤ . ويقول فى ص ٢٠٦ فى الحذف بعد أفعال المشيئة :

ومجىء المشيئة بعد لو وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة إلى شيء ، كثير شائع ، حتى إنهم لا يكادون يبرزون المفعول إلا فى الشيء المستغرب ، بل يستشهد بما استشهد به عبد القاهر :

لو شئت لم تقصد ممحاة حاتم كرما ولم تهدم ماثر خالد
ولو شئت أن أبكى دما لبكينه عليهم ولكن ساحة الصبر أوسع

ويشرحها بنفس الأسلوب والطريقة واللفظ الذى شرح به عبد القاهر . يراجع الدلائل ص ١٢٦

وفي ص ١٤٠ يشرح بيتي كثير عزة أو يزيد بن الطثرية : ولما قضينا من منى كل حاجة ، البيتين ، بما لا يخرج عن شرح عبد القاهر لهما في أسرار البلاغة ص ١٦ إلا خروجا يسيرا .
ومثل ذلك ما ذكرناه آنفا من تشابه العبارة بين الرجلين في الموازنة بين أبيات الأخدع والأخدعين بقطع النظر عن الاختلاف في توجيه الرأيين .

فهل يمكن بعد ذلك أن نحكم على ابن الأثير بأنه اطلع على كتابي عبد القاهر وأفاد منهما ؟ الحق أن ذلك يكون حتما مقضيا لو أننا نظرنا إلى ما أوردناه آنفا من أخذ منه أو احتذاء له ، ولكن أمامنا من الأدلة على عكس هذا الحكم ما قد يكون أقوى مما أدى إليه واستلزمه ؛ وذلك أن المنقب في كتابه يراه قد أغفل كثيرا عما تعرض له عبد القاهر مع عنايته بأشياء تافهة أوليست من صميم البيان ، فإن بابا كالفصل والوصل من أبواب دلائل الإعجاز المهمة ، والذي قال بعض علماء البيان إن البلاغة معرفته ، لم يجزله ذكر فيه لا إجمالا ولا تفصيلا ، ولا ضمنا ولا استقلالا ، وبابا آخر ليس أدنى خطورة من سابقه وهو القصر لم يكن حظه من هذا الكتاب بأسعد من حظ سابقه ؛ والمجاز المرسل وقد ذكره عبد القاهر في أسرار البلاغة قسما من المجاز اللغوي لم يعن به ولا بمقسمه عند تقسيمه للمجاز ، بل المجاز عنده أقسام آخر .

فأغفل كتابه لهذه الأبواب فضلا عن مخالفة كثير من مصطلحاته وبحونه لكتابي عبد القاهر ، لا يدع مجالا للشك في أنه لم يطلع على هذين الكتابين ولم يسمع بهما ، وكيف وقد أورد أسماء كتب ومؤلفين في البلاغة وغيرها مع بيان الأخذ عنهم والنقد لهم كالخفاجي والآمدي وليسوا جميعا كمبد القاهر ولا كتبهم ككتابه ؟

ومع شيء من حسن الظن بالمؤلف نجد أنه ذكر في ص ٥٧ أن الكلمة الواحدة تكون جزلة متينة في موضع كقوله تعالى : « إن ذلكم كان يؤذي النبي » وركيكة ضعيفة في موضع كقول أبي الطيب :

تلد له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلد له الغرام

فإنه يقول إن لفظة تؤذي جاءت في البيت وفي الآية فخطت من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها في تركيب الآية . إلى أن قال : وهذا موضع غامض يحتاج إلى فضل فكرة وإمعان نظر ، وما تعرض للتنبيه عليه أحد قبلي . ونحن نجد عبد القاهر قد تعرض لهذا الموضع الغامض فوفاه حقه في ص ٣٩ دلائل ، عند الكلام على أن لفظة الشيء تكون مقبولة حسنة في موضع ، وضعيفة مستكرهة في موضع ، كقول عمر بن أبي ربيعة :

ومن مالى عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجرة البيض كالدمى
وقول أبي حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا

إذ يقول : « فإنك تعرف حسناتها ومكانها من القبول » ، ثم يقول : « وانظر إليها في بيت المتنبي :

(البقية في ذيل صفحة ١٨٨)

البنوة الطبيعية ووجوب العدة ، وهذه الآثار لا تترتب على الزواج باعتباره عقداً ولكن باعتباره واقعة مادية ، فالعدة واجبة عندم على أثر الاتصال الفعلي ، والبنوة ثابتة ، ويكون المهر بمثابة تعويض عن الدخول . وهذه الآثار ناشئة من أن بطلان العقد لا ينسحب على الماضي وليس له أثر رجعي ، فالعقد قائم حافظ لآثاره ، كما لو كان صحيحاً إلى أن يتقرر بطلانه .

وأما الفاسد فهو أن يحتل شرط من شروط صحته كأن يتبين أن الزوجة محرمة عليه ، وهنا يتفق الباطل مع الفاسد في عدم إقامة الحد لوجود شبهة العقد أيضاً ، ويتفقان كذلك في وجوب افتراق الزوجين ، ولكنهما يختلفان في حالة الدخول ، ففي الزواج الفاسد وفي زواج عدبى الأهلية الذى لم يحزه الولي تترتب على الدخول أربعة آثار : المهر وثبوت النسب والعدة على الزوجة بعد التفريق ، وحرمة المصاهرة ، فيحرم على زوجها أصولها وفروعها ، وتحرم هي على أصوله وفروعه ، ولا تجب نفقة ولا طاعة ولا توارث ، ولا يحل استمتاع أحدهما بالآخر . أما الصحيح فهو الغير معلق على شرط ، والمستوفى لأركانه ، وشروط صحته ، وبذا يصبح نافذاً وتترتب عليه كل آثار الزوجية من حقوق وواجبات ، بدون توقف على الدخول . ويجب على الزوج المهر ، وتجب النفقة بكامل أنواعها ، ما لم تمتنع عن طاعته بغير حق ، كما يجب عليه عدم الإضرار بها لا بالقول ولا بالفعل ، ويجب أن يعدل بينها وبين ضرائرها إن تعددت الزوجات ، كما يجب عليها الدخول في طاعته وثبوت نسب أولادها منه ، وقرارها في بيته ، وعدم الخروج منه إلا بإذنه ، وأن تمتثل لأوامره الشرعية ، وله أن يؤذيها بالمعروف ، وإن مات أحدهما وورثه الآخر ولو قبل الدخول ، وبعد العقد ، تحرم الزوجة على أصول زوجها وفروعه ، وتحرم على الزوج أصول زوجته ، وأما فروعها فلا تحرم عليه إلا بعد الدخول بها ، ويجب على كل منهما حسن معاشرته للآخر كما يحل لكل منهما حق الاستمتاع بصاحبه ما لم يكن هناك مانع شرعى كالحيض والنفاس . « للبحث بقية » مصطفى عبد الحميد أبو زيد

المندوب القضائى بالأوقاف الملكية سابقاً

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شئ عن الدوران

« فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم » ، فمع استمرارنا في حسن الظن بابن الأثير كما تقدم يكون من الحق العلمى أن نجزم بأنه لم ينتفع بعبد القاهر ولم يطلع على كتابيه . ويمكن رد ما يقتضيه ما أوردناه أولاً من أخذه منه أو احتدائه له بأنه أخذ من أخذ منهم عبد القاهر ، فاجتمعا حيناً على عبارة أو شاهد ، لاسيما أننا نعلم أن كلا الرجلين سبق بمؤلفات جلية هي أصول البيان واللغة والنقد والتفسير . وقد يمكن أن يكون ابن الأثير قد أخذ من أخذ من عبد القاهر . (يتبع)

محمود فرج العفدة

مقارنة ومفاضلة

بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأخرى

— ٩ —

بيننا في المقال السابق كيف كان الزواج عند الرومان ، وكيف كانت مبادئه وأصوله وقواعده وأحكامه ، واليوم نتكلم عنه في الشريعة الإسلامية ، وترك استخلاص الفروق للقارى .
فالزواج عندنا له تعريفه وحكمته وأركانه وشروطه .

أما تعريفه : فهو توافق إرادة رجل مع امرأة عن حرية واختيار ، ينشأ عن هاتين الإرادتين عقد نظمته المشرع يترتب عليه أثر يجعل لكل منهما قبل الآخر حقوقا والتزامات ، ويكون أسرة تعيش وتنمو حتى تستكمل هيئة يكون لها مظهر في المجتمع الانساني ينظمه القانون العام . ولعل في هذا التعريف بيان الحكمة منه ، على أن حكمته تتضح جلية مما رواه أبو داود عن معقل بن يسار أن رجلا جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله إني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد أفترزوجها ؟ فنهاه النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ما قال فنهاه ، ثم أتاه الثالثة فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا الودود الولود فاني مكثر بكم الأمم » . وفي الواقع أن من الزواج يكثر النسل ، والأمة لا تزهر ولا تعتز إلا بكثرة أفرادها وتعدد بنيتها ، ففي ذلك العزة القومية وقوة الجانب وعظمة السلطان ورفعة الشأن ، خصوصا إذا كانت تتمسك بالفضائل ، وعلى قسط وافر من الثقافة العلمية ، وعلى جانب من الأخلاق ، فضلا عما في الزواج من تحصين النفس من الوقوع في الكبائر ، وقضاء الحاجات الجنسية من الطريق المشروع الذي أحله الله تعالى بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم معلما للشباب : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ، وبدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج العبد فقد اكتمل نصف الدين ، فليتق الله في النصف الباقي » .

ويجب أن تكون المرأة متينة الأخلاق ذات دين ليكون العرض مصونا والكرامة محفوظة وبذا يكون الاستمتاع التام إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بخير ما يكثر المرء ؟ المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها سرته ، وإن غاب عنها حفظته ، وإن أمرها أطاعته » . ويقول صلى الله عليه وسلم وهو لا ينطق عن الهوى : « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعمى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لاموالهن فعمى أموالهن أن تطفهين ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل » . ويقول كذلك صلى الله عليه وسلم مرشدا : « من

أراد أن يلقى الله طاهرا فليتزوج الحرأر . نعم إن المرأة الصالحة التي تعرف الدين فتتمسك به تعرف ما للرجل عليها من حقوق وواجبات شرعية ، فتقوم بتأديتها على الوجه الأكمل ، كما يقوم الرجل لها بما يجب عليه من الحقوق والواجبات الشرعية ، وبذلك يستظلان بحياة سعيدة موفقة وتكون المعاشرة الزوجية قائمة على أحسن حال ، ويتعاون كل منهما على تدبير شئون الحياة ، وتربية الأولاد تربية دينية خلقية ، فتعتر الأمة بمثل هذه الأمرة الكريمة المباركة الموفقة .

أما حكمه : فهو فرض على المسلم إذا كان قادرا على المهر والنفقة وباقي الواجبات الشرعية ويتيقن أنه إذا لم يتزوج يقع في الزنا ، لأن القاعدة أن ما لا يصل إليه الإنسان إلا بترك الحرام فهو مفروض ، ويكون واجبا إذا كان قادرا على ما ذكر ويخشى الوقوع في الزنا إذا لم يتزوج ؛ ويسن إذا كان قادرا على ما ذكر ولا يمتدد الوقوع في الزنا ولا يخشاه ؛ ويحرم إذا اعتقد أنه إن تزوج فانه يظلم زوجته ويجور عليها ؛ ويكون مكروها كراهة تحريم إذا خشى الجور . من هذه الأحكام الشرعية يمكن الحكم على الشريعة الإسلامية بأنها شريعة العمران الصحيح والمدنية الفاضلة .

أما أركان الزواج فهي كما في كل عقد من العقود تنحصر في الإيجاب والقبول بحضور المتعاقدين ، والإيجاب كلمة يتقيد بها صاحبها إذا علم بها الطرف الآخر وقبلها ؛ ويسقط إذا رفضه الثاني أو قبله بشروط أخرى غير الشروط التي حددها الموجب . والقبول يجب أن يكون صريحا يطابق الإيجاب مطابقة تامة ، فتتجه الإرادتان إلى شيء واحد ينفقان عليه ، وبذا يتم العقد . والإيجاب والقبول في الزواج بصفة خاصة لفظان يدلان في صيغتهما على الماضي للدلالة على حصول الرضا وتوافق الإرادتين .

وأما شروطه التي تلزم لانعقاده والتي بغيرها يخل العقد ولا يترتب عليه أثر للزواج الشرعي فهي :

(١) أهلية المتعاقدين ، لأن الرضاء يفرض وجود الإرادة ، وفاقد الأهلية لا إرادة له ، ولهذا فصغير السن وناقص العقل وفاقد الحرية يعتبر المقعد الذي يصدر من أحدهم موقوفا حتى يحيزه ولي النفس ، فان لم يحيزه فهو باطل .

(٢) اتحاد مجلس الإيجاب والقبول إن كان العقد بالمشافهة بين متعاقدين حاضرين ؛ ولكن إذا كان العقد بين فائنين بطريق المراسلة بأن يكتب أحدهما للآخر في مجلس تحضره شهود ، ففي هذا المجلس يعتبر الإيجاب تاما ، فاذا وصلت الرسالة إلى الزوجة وتلتها أو تليت عليها ، أو أبلغها رسول بالمشافهة في مجلس بحضور شهود ، وقبلت الزوجة انعقد الزواج ،

بمعنى أنه لا بد للشهود من سماع ما في الكتاب أو سماع بلاغ الرسول ، ثم يسمع القبول من الزوجة ليكون الشهود قد سمعوا شرطى العقد ، وشهدوا على الإيجاب والقبول .

(٣) موافقة القبول للإيجاب حتى يتحقق قيام الارادتين على شيء واحد ، بمعنى أن الزوج إذا قال : قبلت أن أتزوجك على صداق قدره خمسون جنبها ؛ وقالت هي : قبلت على هذا المهر ، انعقد الزواج ؛ وإن قالت لا أقبل إلا بمائة لا ينعقد ؛ ولكن إذا كان الإيجاب بخالف القبول بما فيه الزيادة لمصلحة الآخر انعقد الزواج ، كأن تقول الزوجة : قبلت أن أتزوجك على صداق قدره خمسون جنبها ، فأجابها بقوله قبلت زواجك بمائة .

(٤) سماع كل من الطرفين كلام الآخر الذى يقصد به إنشاء الزواج .

على أن هذه الشروط الأربعة ترجع الى أمر واحد وهو الرضا وتوافق الارادتين مع وجود الأهلية . وأما شروطه التى تلزم لصحته فهى :

(١) أن تكون الزوجة غير محرمة .

(٢) أن يحضر عقد الزواج شاهدان رجلان أو رجل وامرأتان ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نكاح إلا بشهود » . على أن الامام مالكاً رضى الله عنه يرى أن الغرض من الشهود إعلان الزواج ، إذ قرر أن حضور الشهود ليس شرطاً لصحة العقد وإنما الشرط لإعلانه بأى طريق حتى لا يكون سرا مكتوماً ؛ فلو حضره الشهود وشرط عليهم كتمانهم لم يصح .

ولا يشترط فى الشهود المدالة ولا البصر ولا انتفاء النية ، ولا يصح بشهادة النساء وحدهن . وإذا كان الزواج بين مسلمين يشترط أن يكون الشاهدان مسلمين ، أما إذا كان الزوج مسلماً والزوجة ذمىة ، فيصح زواجهما بشهادة ذميين .

والزواج إما باطل أو فاسد أو صحيح :

فالباطل حكمه أن العقد لا يترتب عليه أى أثر ويعتبر كعدمه ، ويجب أن يتفرقا من تلقاء أنفسهما وإلا فرق بينهما القضاء ؛ وإذا دخل الرجل بمن عقد عليها عقداً باطلاً كان الدخول بمنزلة الزنا ، غير أنه لا حد عليها لوجود العقد المشتبه فيه ، ولا تعتد المدخول بها بعد الترك (١) ولا يثبت نسب ، ولا يكون توارث ، ولا تستحق المرأة نفقة ولا مهراً ، ولا أى حق ، ولا تجب عليها طاعة ، ومثل هذا الزواج على هذه الصورة يسمى عند الفرنسيين بالزواج الظنى Mariage putatif وإن كان باطلاً عندهم إلا أنه ينتج فى نظرهم آثاراً عرضية منها ثبوت

(١) عدم العدة ليس المراد به جواز الاستمتاع بها بصرف النظر عن زواجها الباطل .

فلا يجوز له ذلك إلا بعد أن يتحقق من أنها غير حامل .

البنوة الطبيعية ووجوب العدة ، وهذه الآثار لا تترتب على الزواج باعتباره عقداً ولكن باعتباره واقعة مادية ، فالعدة واجبة عندم على أثر الاتصال الفعلي ، والبنوة ثابتة ، ويكون المهر بمثابة تعويض عن الدخول . وهذه الآثار ناشئة من أن بطلان العقد لا ينسحب على الماضي وليس له أثر رجعي ، فالعقد قائم حافظ لآثاره ، كما لو كان صحيحاً إلى أن يتقرر بطلانه .

وأما الفاسد فهو أن يحتل شرط من شروط صحته كأن يتبين أن الزوجة محرمة عليه ، وهنا يتفق الباطل مع الفاسد في عدم إقامة الحد لوجود شبهة العقد أيضاً ، ويتفقان كذلك في وجوب افتراق الزوجين ، ولكنهما يختلفان في حالة الدخول ، ففي الزواج الفاسد وفي زواج عدبى الأهلية الذى لم يحجزه الولي تترتب على الدخول أربعة آثار : المهر وثبوت النسب والعدة على الزوجة بعد التفريق ، وحرمة المصاهرة ، فيحرم على زوجها أصولها وفروعها ، وتحرم هي على أصوله وفروعه ، ولا تجب نفقة ولا طاعة ولا توارث ، ولا يحل استمتاع أحدهما بالآخر . أما الصحيح فهو الغير معلق على شرط ، والمستوفى لأركانه ، وشروط صحته ، وبذا يصبح نافذاً وتترتب عليه كل آثار الزوجية من حقوق وواجبات ، بدون توقف على الدخول . ويجب على الزوج المهر ، وتجب النفقة بكامل أنواعها ، ما لم تمتنع عن طاعته بغير حق ، كما يجب عليه عدم الإضرار بها لا بالقول ولا بالفعل ، ويجب أن يعدل بينها وبين ضرائرها إن تعددت الزوجات ، كما يجب عليها الدخول في طاعته وثبوت نسب أولادها منه ، وقرارها في بيته ، وعدم الخروج منه إلا بإذنه ، وأن تمتثل لأوامره الشرعية ، وله أن يؤذيها بالمعروف ، وإن مات أحدهما وورثه الآخر ولو قبل الدخول ، وبعد العقد ، تحرم الزوجة على أصول زوجها وفروعه ، وتحرم على الزوج أصول زوجته ، وأما فروعها فلا تحرم عليه إلا بعد الدخول بها ، ويجب على كل منهما حسن معاشرته للآخر كما يحل لكل منهما حق الاستمتاع بصاحبه ما لم يكن هناك مانع شرعى كالحيض والنفاس . « للبحث بقية » مصطفى عبد الحميد أبو زيد

المندوب القضائى بالأوقاف الملكية سابقاً

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شئ عن الدوران

« فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم » ، فمع استمرارنا في حسن الظن بابن الأثير كما تقدم يكون من الحق العلمى أن نجزم بأنه لم ينتفع بعبد القاهر ولم يطلع على كتابيه . ويمكن رد ما يقتضيه ما أوردناه أولاً من أخذه منه أو احتدائه له بأنه أخذ من أخذ منهم عبد القاهر ، فاجتمعا حيناً على عبارة أو شاهد ، لاسيما أننا نعلم أن كلا الرجلين سبق بمؤلفات جلية هي أصول البيان واللغة والنقد والتفسير . وقد يمكن أن يكون ابن الأثير قد أخذ من أخذ من عبد القاهر . (يتبع)

محمود فرج العفدة

«الموازنة»

وأثرها الأدبي في النقد والبيان

— ٣ —

ما أخذنا على الموازنة : عنى العلماء بنقد الموازنة والتعليق على بعض آرائها ، واتجهوا في ذلك النقد وهذا التعليق اتجاهين : ١ — ففريق عنى بنقد بعض آراء الآمدى الأدبية والبيانية التى عرض لها في خلال تعليقه على بيت أو شرحه لرأى ، ومن أشهر هؤلاء الشريف المرتضى م سنة ٤٣٧ الذى عنى بتسجيل بعض أخطاء الآمدى في كتاب له اسمه (الشهاب في الشيب والشباب) ، وابن سنان الخفاجى م سنة ٤٦٦ في كتابه سر الفصاحة ، وعبد القاهر الجرجاني م سنة ٤٧١ في دلائل الإعجاز (١) ؛ أما نقد المرتضى في بعضه صحة وفي بعضه انحراف عن العدالة والإنصاف (٢) وأما نقد الخفاجى فقد تأثر في أغلبه بالمرتضى ؛ ونقل عنه حيناً وصوبه ، ونقل عنه حيناً آخر ونقد رأيه مبيناً أن الحق مع الآمدى ؛ والقليل الأقل من نقد الخفاجى لم يتأثر فيه برأى ولم يتبع فيه أحداً وإن كنا لانوافقه على كثير منه ؛ ٢ — وفريق آخر عنى بنقد الموازنة في روحها واتجاهها كصاحب معجم الأدباء الذى حمل الآمدى عبء التعصب على أبى تمام (٣) وإيثار البحتري وتقديمه .

فلنذكر — نحن — رأينا في الموازنة ، ولنعدد بعض ما نأخذ عليه ، مما لم يسبقنا إلى ذكره أو تفصيله أحد ، متحرين العدالة في الحكم والنقد ، حريصين على إرضاء الحق وحده ؛ فالنقد المخلص أم مظاهر البحث الحر ، ولا يميم الآمدى أن نقده ناقد ، أو آخذه باحث منصف ؛ فأى طالم لا يهفو كما يقول العلماء ؟ وأهم هذه المآخذ هي :

أولاً : انتصاره لعلماء الأدب المتعصبين للقديم المنكرين فضل الحديث ، ودفاعه عنهم ، كما فعل مع الأصمعى فيما روى عنه : من أن إسحاق الموصلى أنشده :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى الصدا ويشنى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال : لمن تنشدني ؟ فقال : لبعض الأعراب ، فقال : هذا والله هو الديباج الحسروانى ، فقال إسحاق : إنها ليلتهما ، فقال الأصمعى : لا جرم والله إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما . وكما فعل الآمدى أيضاً مع ابن الأعرابي حين أنشده الطوسي أرجوزة هي لأبى تمام :

(١) راجع ٤٢٥ و ٤٢٦ دلائل الإعجاز . (٢) ص ٤ وما بعدها الشهاب (٣) راجع ٨٧

وماذل عذته في عذله فظن أنى جاهل من جهله

فاستحسنها وأمر بكتابتها ، فلما علم أنها لا بي تمام تنقصها وعابها . ودفاع الآمدى عن هذين العالمين الجليلين (١) دفاع ضعيف متكلف ؛ وهل يسوغ لمنصف أن يقول إن ذلك غير منكسر من الأصمعي وابن الأعرابي ، لأن الذى يورده الأعرابي وهو يحتد على غير مثال أحلى في النفوس وأشهى إلى الأسماع وأحق بالزيادة والاستجادة مما يورده سواء على الأمثلة « كما يحاول الآمدى أن يلقى ذلك في روعنا ؟ ولو أنه اعتذر لهما ولأمثالهما بأنهم كانوا جلة الرواة وشيوخ اللغة ، والحفاظ على العربية ، وأنه لا يجدر بهم وهم في منزلتهم العلمية الضخمة أن ينزلوا عن شيمهم وكبريائهم ، ويرووا شعر المحدثين الناشئين ، ويسيروا بشعرهم في مناهج البحث العلمى ؛ أو لو اعتذر لهم بحاجتهم في الشعر إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون (٢) كما اعتذر ابن رشيق ؛ نعم لو قال الآمدى ذلك وذهب إليه لوجدنا له عذرا مقبولا معقولا . ولقد عرض ابن المعتز — فيما رواه الصولى — لهذه الخصومة ، ورأى أنها عيب قبيح ، وأن من فعل ذلك فإنما غرض من نفسه ، وجعل ذلك ناشئا عن جهل بنقد الشعر وتمييزه (٣) . ولكن صاحب الوساطة عرض لهذا التحامل الظاهر ، ورده إلى سببه الصحيح وهو تعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (٤)

ثانيا : إيناره للبحترى وجنوحه إلى تقديمه وانتصاره له ؛ ويتجلى ذلك في ثنايا كتابه في مظاهر شتى :

فهو حينما يذهب إلى أن جيد البحتري أكثر من جيد أبى تمام ، وأنتك كلما أمعنت النظر في ديوان البحتري أخرجت كثيرا من جيده الذى غاب عنك قبل حسنه ، بينما لا تظفر إذا أمعنت النظر في ديوان أبى تمام من جيده إلا بالقليل (٥) ؛

وهو حين ينقد البحتري بمسه برفق ، بل يقف في كثير من الأحيان موقف المدافع عنه ؛ أما إذا تعرض لأبى تمام قبض على أخطائه بيد لا تلين ، يزيف كثيرا من معانيه ويظهر مجافاتها للذوق العربى القديم ، ويهرج كثيرا من أساليبه التى لا يستسيغها النهج العربى القويم ؛ وهولا يستقصى البحث في أخطاء البحتري ، فلا (يشيد) مثلا بقوله :

إن دام ذا أو بعض ذا من فعل ذا ذهب السخاء فلا يحس سخاء
أو قوله :

فأكون طورا مشرقا للمشرق الآه صى وطورا مغربا للمغرب .

(١) ص ١٠ و ١١ موازنه (٢) ٧٣ ج ١ عمدة (٣) ١٧٥ و ١٧٦ أخيار أبى تمام للصولى
(٤) ٤٩ و ٥٠ وساطة (٥) ٢٢ موازنة

أو قوله :

إذا معشر صانوا المماح تمسفت به همه مجنونة في ابتذالها
إلى غير ذلك من عيوب البحترى وأخطائه ؛

ثم هو يظهر نصرته للذين رأوا البلاغة سحر نظم وجمال سبك ، ويرى بعد ذلك أن الشاعر
البحترى ، أما أبو تمام وأضرابه كالتنبي فهم حكام ؛

وهو أيضا يدفع كثيراً من سرقات البحترى التي أخذها من أبي تمام وينكر أن تكون
سرقة ، بحجة أن معانيها عامية لاخاصية ، فينفي الآمدى أن يكون قول البحترى :
متحير يغدو بعزم قائم في كل نائبة وجد قاعد

مأخوذاً من قول أبي تمام :

همة تنطح النجوم وجد آلف للحضيض فهو حضيض
أو أن يكون قوله :

ولن تنقل الحساد مجدك بعدما تمكن رضوى واطمان متالع
مأخوذاً من قول أبي تمام :

ولقد جهدتم أن تزيلوا عزه فإذا ثبير قد رسا ويعلم
أو أن يكون قوله :

جرى الجود مجرى النوم منه فلم يكن بغير مباح أو طعان بحالم
مأخوذاً من قول أبي تمام :

ويبيت يحلم بالمكارم والعلما حتى يكون المجد جل منامه

وأشبه ذلك مما ينفي الآمدى عنه فيها السرقة بدعوى أن معانيها عامية ، وقد جرى رأى العلماء
بأن لا يحكم بسرقة إلا في المعاني الخاصة .

ونحن لانسلم للآمدى أن هذه معان عامية ولكننا نراها تعلق عن درجة العامية إلى
حد ما ، ونقول بعد هذا : إننا لا يمكننا — ولو سلمنا بأنها عامية — أن ننكر احتذاء
البحترى الظاهر في هذه المثل وسواها ، مما يكثر تعداده ومما يبلغ الستائة بيت ، لأبي تمام ،
ولا نستطيع أن نقول إنه لم ينهل من المنهل الذي شرعه أبو تمام ولم يشرب من عبابه ، ولا أن
نقول إن البحترى لم يكن في ذلك عيالا على أبي تمام وتابعاه ؛ ثم ما للآمدى — عفا الله عنه —
لا يترك مؤاخذه أبي تمام على سرقاته في المعاني العامية — كما فعل مع البحترى — مع أن أبا تمام
في كثير مما أخذ يستبد بشرف المعنى لجودة نظمه وحسن تأتبه وارتقائه بالزيادة على ما أخذه
والنأتق في صوغه ؛ أفليس قول أبي تمام :

أحلى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبههم بهم خدودا
الذي زعم أنه مأخوذ من قول الأعشى :
وأرى الفواني لا يواصلن امرأ فقد الشباب وقد يصلن الأمردا
أليس هذا اشتراكا في معنى عامي ، فلم يعدده سرقة ؟ وأليس قوله : « ما الحب إلا للحبيب
الأول » الذي قال الآمدي إنه مأخوذ من قول كثير :
إذا وصلتنا خلة كي نزيلها أبينا وقلنا الحاجبية أول
أليس هو معنى عاميا مشتركا ؟ فهلا دفع أن يكون سرقة ؟ وهكذا شأن كثير مما أخذه الآمدي
على أبي تمام ، ثم كيف ينكر الآمدي أثر أبي تمام فيما يأخذ من المعاني ؟ أيرانا نسلم له أن
قول أبي تمام :

زى بأشباحنا إلى ملك نأخذ من ماله ومن أدبه
قد أخذه أبو تمام من قول مسلم :

يصيب منك مع الآمال طالبا حلما وعلمنا ومعروفا وإسلاما

فنتطرح بيت أبي تمام ، ونذكر أثره فيما أخذ من معنى ، وفضله في صوغ ما اقتبس من مسلم من
فكرة ؛ وكيف وقد جرى حكم نقاد الشعر وجهابذة المعاني على أن الشاعر إذا سرق معنى فأداه
بأبلغ مما أداه به صاحبه انفراد به ولم يعد ذلك عليه عيبا وكان صاحب هذه الزيادة بالتفضيل
أحق وبالتزكية أولى (١) ؛ ولعمري لقد كان دعبل يضع من شأن أبي تمام ، لخط من شأنه في
مجلس من مجالسه زاعما أن أبا تمام يتتبع معانيه ويأخذها وأنه أخذ قوله :

وإذا امرؤ أسدى إليك صنعة من جاهه فكأنها من ماله

من بيته :

شفيهمك فاشكر في الحوائج إنه يصونك عن مكروها وهو يخلق

فقال رجل من المجلس لدعبل : أحسن أبو تمام ، والله لئن كان أخذ هذا المعنى وتبعته فما أحسنت ،
وإن كان أخذه منك فلقد أجاده فصار به أولى منك ، فقام دعبل من المجلس غضبان أسفا .
وما مثلنا مع الآمدي إلا كمثل ذلك الرجل مع دعبل .

محمد عبد المنعم قهاجبي

(١) ١٥١ وساطة (يتبع)